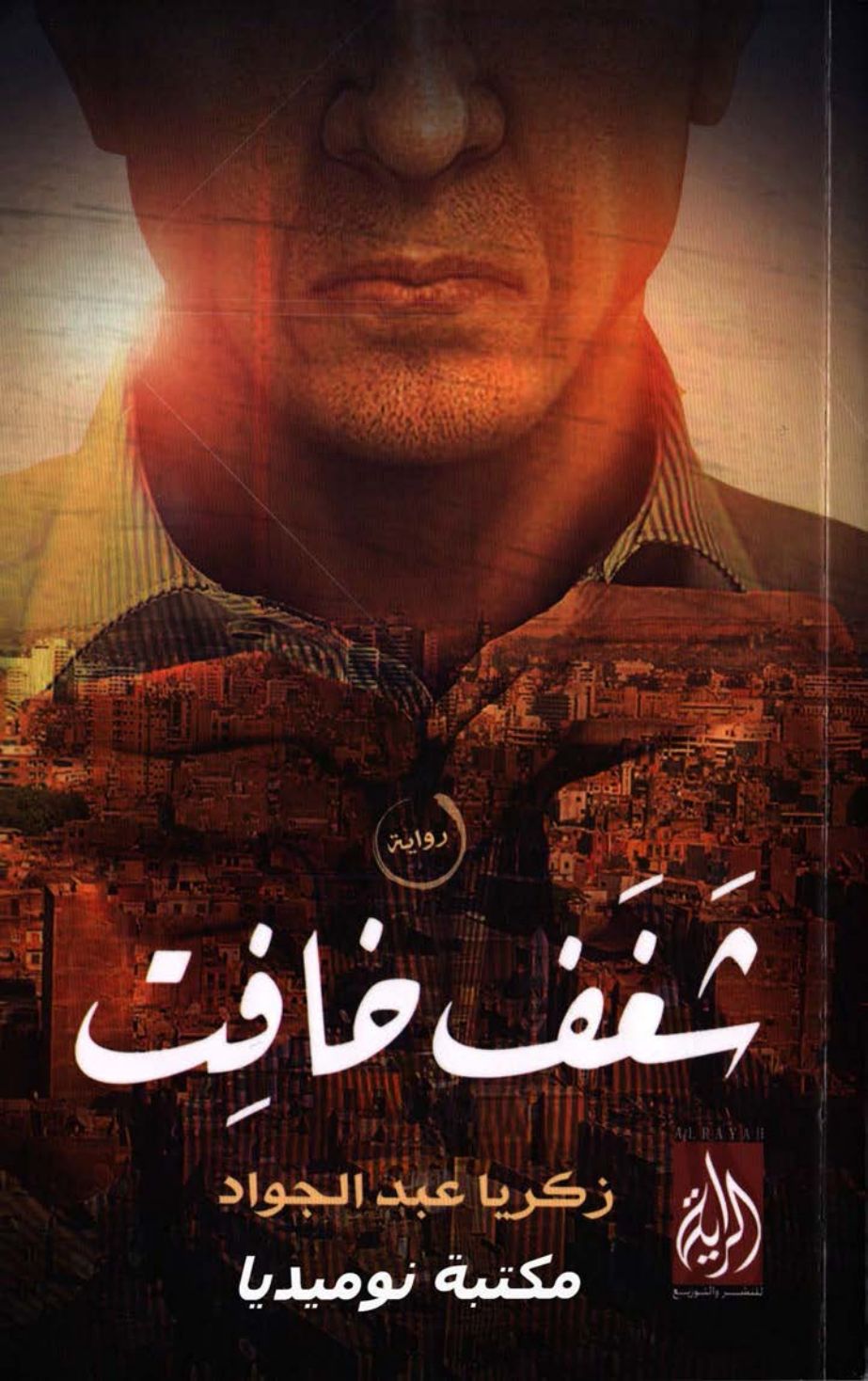

رواية

شَغَف خافِت

زكريا عبد الجواد

AL RAYAH
الراية
للنشر والتوزيع

مكتبة نوميديا

شغف خافت

زكريا عبد الجواد

ALRAYAH
الراية
للنشر والتوزيع
٢٠١٦

شغف خافت

للمؤلف

زكريا عبد الجواد

عدد الصفحات : 208 صفحة

عدد الألوان : 1 لون

مراجعة لغوية : قسم المراجعة بالدار

تصميمات : القسم الفني بالدار

لا يجوز تصوير أو نقل أو نسخ أو توزيع أو نشر هذه المادة بأي طريقة إلا بموافقة خطية من دار الراية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

لدار الراية للنشر والتوزيع

2016

توزيع

ALRAYAH

MEDIA PRO . TEC

رقم الإيداع : 3025 / 2016

الترقيم الدولي : 9 - 190 - 426 - 977 - 978

15 شارع سوريا - المهندسين - الجيزة - جمهورية مصر العربية

تليفون :

002 02 33451851 - 33026637 - 33446727

E-mail:rayatop@hotmail.com

إلى الأصـــــدقاء
الذين تلاشـــتْ أحلامهم
قبـــل الأوان

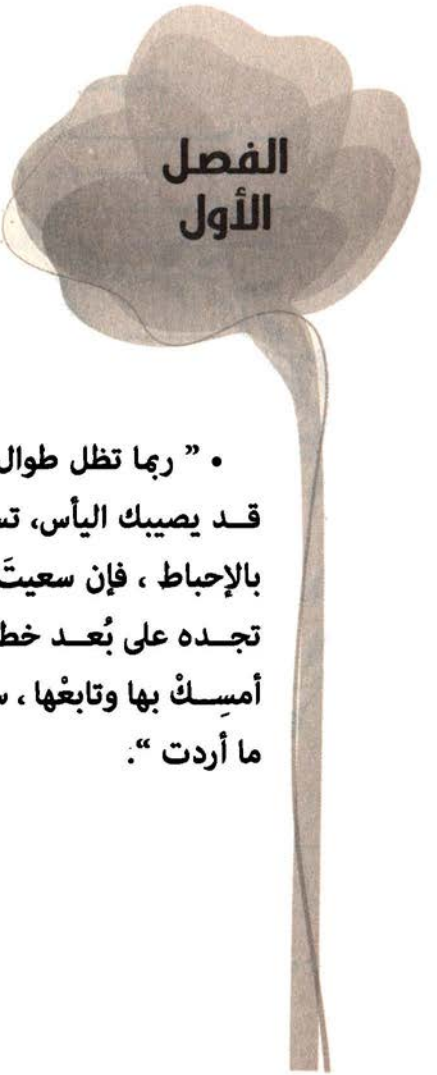

• " ربما تظل طوال العمر تبحث عن طريق، قـد يصيبك اليأس، تستسـلم ويعتريك شـعور بالإحباط ، فإن سعيتَ مجدداً لاكتشافه ، سوف تجـده على بُعـد خطوة ، ربما يلـوح في ومضة، أمسِـكْ بها وتابعْها ، سـيضعك الأمل على بداية ما أردت ".

في ذلك المكان، دائماً مَّا أشـعر برهبة ، وفي كل مرة كانت الطائرة تحط فيها على المدرج، وترتفع طقطقة أحزمة الأمان، يهب الركاب استعداداً لمغادرة ذلك الصندوق الذي كان يحوم قبل دقائق في فضاء فسيح، عندئذ، تجتاح كياني رجفة، وأحس بجسدي يغرق في منتصف بحر، تتلاطم أمواجه في جنون.

رحتُ أعبر الممرَّ الطويل لمطار "بيرسون"، منتقلاً فوق سير متحـرك، يحملني في بطء، ويسـلمني إلى آخر، إلى أن وصلتُ إلى عمق الصالة المتسـعة التي كانت تعُجُّ بطوابيرَ طويلةٍ من بـشر لهم ملامح متعبة، شـحوب يراه البعـض ملازماً لرحلة طيران مُرهِقة، ويرجعه آخرون إلى الرهبة من نظرات موظفي الجـوازات، الذين لا يكفون عن طرح التسـاؤلات التي تهبط فجـأة، وتثقل صدور القادمـين إلى تلك البلاد التي تغير إيقاع تعاملها ب 360 درجة مـع ركاب الطائرات الآتية من الشرق الأوسط، منذ أحداث سبتمبر.

حاولتُ التماسـك، كي لا يستريب أحد من الذين ينتشرون في زوايـا المكان، ويوجهـون حدقات عيونهم عـلى القادمين، يزعمـون أن مهمتهم تتحـدد في إرشـادهم إلى الأماكن التي

ينبغـي الانتظـام فيها، بينما أعلـم، مثلما يعلـم غيري أنهم يطلقون الأعين، لتتسـلّل بين نسـيج الملابس ومسام الأجساد، وأحياناً إلى الأفكار والنوايا، وهذا ما كان دائماً يُشـعِرُني في تلك الصالة بالتوتر.

لما دخلتُ هذه المرة، رأيتُها على نفس الحال، بشرٌ ينتظمون في صفوف طويلة، سِحَنٌ لها ألف شكل وشكل، يندُر أن يتواجد بينها وجهان متطابقان، اخترت طابوراً يتحرك إلى الأمام بإيقاع بدا لي أنه الأسرع، توقّعـي هذه المرة كان في محِلّه، لأنه بعد وقـت قصير، راح الشـخص الـذي كان يقف أمامـي يتقدم بانتظام، حتى وصل إلى الخط الأصفر الذي يفصل أقدام الناس عن الصندوق المصمـت الذي يعلوه حائط من زجاج، ويلوح من خلفه وجه موظفة الجوازات ذات الابتسامة الصارمة.

كنتُ مُشوَّشـاً، وأنا أقف في ذلك الطابور الطويل، قطعتُ يومـاً كاملاً وأنا أنتقل من مطـار إلى آخر، حتى وصلتُ أخيراً، بـرأس تعطلت فيهـا الحواس، لا أذُنٌ تسـمع، ولا عينٌ تصفو الرؤية أمامها، ولا كيانٌ قادرٌ على التماسـك، لا سـبيلَ أمامي سـوى انتظار دوري في ذلك الصف البشري الذي يتراص أمام مسؤول الجوازات.

وقفتُ أنتظر ، لأصـل إلى صاحبة النظارة الدائرية الخالية

من أي إطار، والشعر الأشقر المربوط بفيونكة سوداء، وينسدل ذيل حصانها إلى الخلف، كانت تواصل فحص جواز سـفر من سـبقني ، وحين كانت تمسـك بالورقة التي كتب فيها بياناته، لاحت مني التفاتة إلى الجهة اليمنى، عندئذ ، شـعرتُ برعدة قويـة تسري في كياني، شيء عاصف لـه قوة قاهرة، قبض على حـواسي فجأة واختطفها بعيداً. بعد لحظـاتٍ ظننتُها امتدَّت وقتـاً، راحت الرعدة تتفـكك، فرأيتُ أمامـي ملامح أعرفها، حاولـت التنقيب في صندوق الذاكرة، لم أتمكن من اسـتدعاء أي معلومة، في تلك اللحظة المرتبكة، بينما كانت عين موظفة الجوازات ترمقني، أغمضت عينيّ مرات، وفتحتهما، كأنَّ جناح ذبابة مولودة للتو انحشر بين غطائي الجفن، وترك لي غشـاوة، تمنيت لـو أن معي زجاجة مياه بـاردة، فأصبها بكاملها على وجهـي، أدرتُ بصري، لا ماءَ في القاعة، ولا فرصة للخروج من الطابور، جاهدتُ لاستعادة تماسكي، لم يسِرْ الأمر على ما يرام، لكنـي بعد ارتباك، تقدمتُ نحو مكان الموظفة، خشـيت من أن يتمَّ تفسير ارتباكي على النحو الذي لن يكون في صالحي، لم يعد أمامي غير التظاهر بالتماسـك، وضعت أصابع كفي على أذني اليمني، كنت في تلك اللحظة أستنجد بالطنين الذي لايزال يسكنها منذ أن كانت الطائرة تقترب من المدرج، تقدمت أكثر وأنا على هذه الحال، كانـت موظفة الجوازات تواصل عملها بتركيز، مددت يدي بجواز السفر، بينما راحت ذاكرتي تدور في

مكان آخر، شـعرت بصوت عجول داخل الرأس، أشبه بتدافع النقود داخل ماكينة عدها، أمسـك مسـؤول الجوازات الذي يقـع مكتبه على يسـار الموظفة التي لها بياض يشـع، بجواز سفر شخص ارتسمت على وجهه، ملامح أعرفها، راح يتجاذب حديثاً معه، اندفعت دقات قلبي لاهثة: "أيكون هو؟"

رحتُ أنظر في دهشة، أتفرَّس في كل تعبير يظهر على وجهه، وهو يرد على تسـاؤلات الموظف، نفـس العينين الخضراوين، والأنـف العريض، غير أن النحول زحـف نحو مقدمة الرأس، وإن لم يسـتطع تغيير القَسَـمات، بدتْ العلامات التي تركتها السنوات وهي تعبر، واضحة على الملامح، مثلما ظهرت بصمتها على الجسد الذي صار ممتلئاً ، عما كان في السابق، البطن أكثرُ بـروزاً وهي ملفوفة بالجاكيت والقميـص، لكن الهيئة ظلَّتْ مثلما كانـت، بين الطول والقـصر، ولا شيء آخر تغير بدرجة تدفع أي شـك في أن من أراه، هو نفسـه الذي عادت صورته القديمة لتحتلَّ شاشة الذاكرة.

في كل لحظة كانت تمر، ظل شـعوري يتزايد، أردد لنفسي، هذا الذي أراه على بعد ثلاثة أمتار، ليس سواه, لم يكن أي منا يفترق عن الآخر، إلا في سـاعات نادرة، وإن لم يكن هو الذي أراه الآن، ففـي أضعف الاحتمالات، لـن يكون غير واحد من أقاربه، شقيقه الأكبر، أو واحد من الأشخاص الذين ينتمون إلى

دائرة يحمل فيها البشر خصائص متشـابهة، درجات متفاوتة مـن الملامح، قليـل من الطباع، عـادة ما تنـثر الوراثة بعض علاماتها على الأبناء، أو تترك بعض تحاياها لآخرين ينتمون إلى أغصان لصيقة بشجرة الدم.

دون تعمد، تركت الذاكرة تواصل استرسالها، لكن الموظفة أرغمتنـي فجأة على التوقف، حين انطلـق صوتها منادياً على مـن جاء عليه الدور، تقدمت ثلاث خطـوات بعد أنْ أخذتُ أتمتـم في سرّي بالآيات التـي أحفظها، والتي دائمـاً ما تصعد إلى الذهـن، كلما وقفتُ في طابور جـوازات المطار، " وجعلنا من بين أيديهم سـدّاً، ومن خلفهم سـدّاً، فأغشيناهُم فهم لا يُبصرون"، كنتُ قادمـاً إلى "تورونتو" ، مثلما حدث في مرات كثيرة سـابقة، دائماً ما كنت آتي إليها، لألتقط أنفاسي من رحلة طويلة منهكة، أظلُّ أدور في شـوارعها، قبل أن أسـتقلَّ رحلة داخلية تحط بي إلى "مونتريال".

وعـلى الرغـم من أنَّ دخـولي إلى تلـك البلاد، يتـمُّ وفق الإجـراءات القانونية، ظلَّتْ لحظة وقوفي أمام موظف الهجرة تشكل لي هاجساً، لست أشعر فيه براحة، ولا تعود إليّ أنفاسي من جديد، إلاَّ بعد اجتيـاز البوابة الصغيرة التي عادة ما تقع على يسار الموظف.

مددتُ يدي بجواز السـفر، والورقة التـي وزعتها مضيفة الطائـرة على الـركاب، ودونت فيها ردوداً على أسـئلة ظلت تدور حول مـدة الغياب في الخـارج، والهدايـا التي يحملها القادم؟ كانت نظرات عينيّ مصوبة نحو ذلك الشـخص الذي أظنه "منير"، في تلـك اللحظة، غادر الجوازات، واتجه خارجاً، ظللتُ أتابع خطواته، إلى أن انتبهتُ على سـؤال الموظفة التي أقـف عند حافَّة مكتبها، وهي ترمقنـي بعيون متحفزة، على الرغم من الابتسامة التي رأيتها مرسومة على ملامحها، وكنتُ على يقين من افتعالها:

- "من أي مكان جئت؟" ، سـألتني هذا السؤال ، وهي تعرف أني كتبتُ الإجابة في ورقة الجمارك، قلت لأقطع الطريق على استرسالها في أسئلة مستريبة:

- "مـن مـصر" ، لكنها لم تكتـفِ ، ولم تنتظر، ودفعت على الفور بالسـؤال الآخر، وهو دائماً ما يتردد من أي موظف جوازات في كندا:

- "ولمـاذا ذهبت؟"لم أفهـم ما الذي يعنيها في سـبب ذهـابي، أو عـودتي مادمتُ أتمتَّع بحق الإقامـة في تلك البلاد، ولكني للمرة الثانية فضلت أن أردَّ السؤال بإجابة، علَّها تختصر الأمر وتدعني أذهب إلى سير الحقائب:

- "لأزور أمي المريضة".

عادت إلى إلقاء نظرتها الماكرة، بينما شفتاها تنفرجان عن ابتسامة هي أقرب إلى شراك تتحفز لإيقاع الفريسة، من حركة فمها، خمنت السؤال:

- "وهل وجدتها على ما يرام؟"

هززتُ رأسي هذه المرة، ولم أنطق، لماذا في كل مرة يطرحون نفس الأسئلة ، وهم يعرفون الردود؟ كانت أذني اليمنى لازالت تعاني من آثار الضغط الجويّ داخل الطائرة، وفي اللحظة التي كنت أقف فيها، ظللتُ أشعر أن شبكة من المطاط تسد الأذنين، وتمنع عنّي وصول الكلام صافياً، مثلما تحجب أصواتاً لم يكن أصحابها يبتعدون عن مكان وقوفي بأكثرَ من متر، راحت السدادة تتمزق قليلاً في بطء، فانسابت إليّ أصوات، أشبه بالتي تصدر عن قماش يتمزق، صوت زاعق، يتقلص بعد وقت، ثم يستكين خافتاً.

تخيلتُ، أن رعوداً تمكنت من حفر مسار لها داخل نفق يمتدُّ في رأسي، وتصورت فجأة أني عبر هذا الأنبوب، سوف أتمكن من التقاط ما يدور.

- "لماذا لم ترد؟ هل أصبحت مطمئناً على ال (ماما)؟".

قالتْها هذه المرة بعربيةٍ واضحة، ولكْنَةٍ شاميَّة، رددتُ بعد أن تملَّكني شعور بالدهشة:

- "نعم، تركتها بخير".

من جنسيَّته المكتوبة على ورقة الجمارك، وجواز السفر الأخضر والعريض، أدركت الموظفة المدربة على التعامل مع مئات المسافرين كل يوم، أن ذلك القادم عربي، وضعت الورقة في وسط الجواز، مدَّت يدها به، تمتمت على عجل بعدة كلمات، كانت حروفها تتسابق، لم أتبيَّنها تماماً، وأظنُّها تمنَّتْ لي قضاء وقت طيب.

من الطبيعيّ أن أتشكَّك في ما رأيته على الطابور الموازي، تلك الملامح التي أعرفها، ذلك الأنف العريض ، والعينين الخضراوين، والجبهة التي تنضح بلون وردي، تلك القامة التي بدتْ التغيرات عليها، لكنها مازالت تحتفظ بملامحها الأساسية، هل هو "منير"؟ أم أنَّ إرهاق الرحلة قد صوَّر لي أوهاماً جديدة؟

خلف غرف زجاجية، يجلس داخلها موظفو جوازات المطار، أخذني ممر طويل، لا يزيد عرضه عن متر ونصف، حتى وصلت إلى صالة انتظار الحقائب، كانت السيور الجلدية تدور بأغراض القادمين، بينما تحتشد في المكان أعداد كبيرة

من الركاب الذين انتهوا لتوِّهم من إجراءات الوصول، وراحوا يتكدَّسون في لهفة، وهم على بعد دقائقَ من لحظة الارتماء في الأحضان الودودة.

لمحتُ من جديد ذلك الذي أعتقد أني كنتُ على معرفة به، رحتُ هذه المرة، أتفرَّس ملامحه، لم تعد لديّ أي شكوك في أن تلك القَسَمات التي أراها، شديدة الشبه به، على الرغم من أن هناك تغييرات حدثت، بقايا الشعر الذي كان في زمن سابق منثالاً، فاحماً ولامعاً وغزيراً، حنية الذقن الملساء التي كنا نشبهها بنعومة بشرة الفتيات، عيناه المؤطرتان بأجفان تميلان قليلا إلى الانتفاخ ، كل التفاصيل التي رأيتها، ترجح أن هذا الذي أراه هو "منير"، حتى بعد أن تركت السنوات بصماتها، فمن غير المعقول أن تنطبق تلك الملامح على شخص شبيه ، إلى هذه الدرجة، حتى وإن نحلت مؤخرة الرأس واستقرت دائرة صلعاء أعلاها. مع ذلك،كان متأنقاً، نفس الألوان التي كان يختارها لملابسه، فتستفز آخرين، وتثير سخرية الرفاق، الأحمر الفاقع فوق الأبيض الناصع، لا يداخلني شك في أنه هو، فلماذا لا أتقدم نحوه؟ لم لا أضع حدَّاً لهواجسَ باتتْ تلح عليّ، منذ دخولي إلى المكان؟

قطعت خطوات معدودة باتجاهه، وقت أن كان لا يزال واقفاً أمام السير، منتظراً حقائبه، وحين اقتربت، تعمدت

الوقوف في محاذاته، لم تمر دقيقة، حتى كان هو الذي التمعت عيناه، بدتْ على ملامحه دهشــة رأيتها في ذلك الوقت أشــبه بالفزع، أطلق بعدها تساؤلاً زاعقاً: ..... عادل!

لم يعد هناك احتمال آخر، سوى أن يكون "منير نصر الدين المنشاوي" الذي كان صديقاً لي ذات يوم بعيد، قبل أن تنقطع بنا الأماكن، وتفرقنا ثلاثون عاماً؟ تعانقنا، لم أصدق أن الصدفة يمكــن أن تباغــت المرء، حتى لو كان في أقصى شــمال الأرض، قطع "منير" لحظات الارتباك، أزاح عن كاهلي ســيل الأسئلة ، ظل الســير الجلدي يتلوَّى، يدور كأفعوان، ويعود بأعداد من الحقائب، شــغلنا الحديث فلم ندرك أننا أصبحنا وحيدين في تلك الصالة، مع سير جلدي يواصل دورانه.

خرجنــا معاً، يقــود كل منا عربته الحديديــة، اتجهنا نحو الممر الذي يُفضِي إلى صالة انتظار القادمين, لم تتوقف الكلمات طيلة ســيرنا ، وحين اقتربنا، رأيت امــرأة تنبثق فجأةً من بين الحشــد، وتندفع مثل عاصفة، تفتح ذراعيها وتلقي بجسدها كله في أحضانه، كان لها طولٌ فارع وشعرٌ فاحم يسترخي على كتفيها كخصلات من حرير، أخبرتْني ملامحُها أنها تقترب قليلاً من الأربعين، بينما أكَّد قوامها المتماســك، وعيناها المتسعتان، أن جــمالاً أخَّاذاً كهذا، لم يســبق لي أن تعرفت عليه ، وقفتُ أمام المشهد مذهولاً، اتجه "منير" نحوي، أشار بيمناه:

- "هــذا عادل، أقرب صديق لي في أيام الشــباب، عثرت عليه حالاً بالصدفة، هنا في هذا المطار.. وهذه رشا.. زوجتي".

كانــت المفاجــأة مذهلــة، ولعله رأى التبــدل على ملامح وجهي، لم أتمكن من اســتيعاب مــا قاله، لأني كنت أعرف من هي زوجته، عايشتُ معظم فصول الحكاية التي جرتْ بينهما، أعني تلك الأخرى، لا هذه التي عرَّفني بها للتو.

اندفعــت التفاصيل التي كنت أظنُّ أن الذاكرة محتْها، كل الأحداث التي جــرت قبل ثلاثة عقود، البدايــات والنهايات، والمد والجزر الذي كان في المنتصف، رأيت الدموع التي كانت تنساب في حرقة، الزهد في الحياة والعزلة، مثلما رأيت لحظات الابتهــاج تتقافز في عينيه، كل الذي عايشــته اندفع أمامي في لحظة واحدة، بعد أن قال لي أنها " رشا" زوجته.

تذكرت تلك الأيــام البعيدة التي كنا نلتقي في مســاءاتها، دارت في ذهنــي تفاصيل كثيرة صاحبت زواجه وهند، فكيف أصدق الآن، أن الأقوال تغيرت إلى هذه الدرجة، وأن الذي أراه في صالة اســتقبال القادمين، هو مــن يفاجئني بزوجة أخرى، امرأة لم أعرفها من قبل، ليست هي "هند"؟

ابتلعت الكلمات، وافتعلت ابتسامِة، قلتُ بعدها:

- "تشرفنا".

لا أعلم تماماً إن كان قد قرأ التعبيرات التي ارتسمت على وجهي أم لا ، ولم أنتبه إلاَّ حين سارع ليسأل:

- "لابد أن أراك، أتقيم هنا؟"

- "سأغادر بعد غد إلى مونتريال".

قبل أن يمُدَّ يدَه مودعاً ، سألني عن مكان الإقامة، تبادلنا أرقام الهواتف، رسم ابتسامة، لم تخُفِ ارتباكه، ضغط على كفي وهو يقول:

- "ليكنْ موعدُنا في مساء الغد، لديَّ الكثير لأقوله، سنوات طويلة تحتشد بالحكايات".

- "سأكون مستعداً".

سيارة الأجرة التي أقلَّتْني، لم تستغرق أكثر من نصف ساعة، قطعت خلالها المسافة من المطار حتى وسط تورونتو، اخترقت طريقاً، ثم انحدرت منه يساراً، فظهرت تلك البنايات الزجاجية التي تشع اخضراراً، واصلت السيارة الخوض في قلب مدينة تعاني طرقاتها معظم أوقات النهار من اكتظاظ خانق، أوصلتني إلى الفندق الذي اعتدتُ النزول فيه كلما هبطتُ على أرض تلك المدينة الكندية.

التقط موظف استقبال الفندق مفتاح الغرفة، وناوله لي،

نفـس الغرفة ونفس الدور الذي سـكنت به في العام الماضي، صدفتان في يوم واحد، لم لا؟ ليس أمراً يثير القلق، الصُّدَفُ أحياناً تأتي وقتما تريد، صعدت مع عامل الحقائب إلى الغرفة، وحين أزحتُ سـتائر النافذة، تبدّى لي مشهد شارع "لومبارد"، نفس ما شاهدته في المرة السابقة، عمال فوق سطح البناية المقابلة، نفس ما كنت أراه حين كانوا يعملون في إنشاء أدوارها الأولى، هـا هي اليوم ارتفعت كثيراً ، رحـتُ أعدُّها لأبعد ذهني عن الانشغال بالمشهد الذي رأيته في المطار، الآن أحصيتُ عشرين طابقاً من البناية، لكن المشهد الآخر راح يقتحم ذهني، ويفتح صندوق الذاكرة في بطء، فأرى أمامي لقطات متتابعة، أصواتاً تتداخل، فرحاً طفولياً ممزوجاً بانفعالات غاضبة، يأسـاً مريراً، وبهجة باذخة, ومشـاهدَ راحت تتوالى، مشوشة أحياناً، كأنها قادمة من زمن سحيق، وصافية مثل لوح من زجاج شفيف.

غامت الرؤية قليلاً، أغمضت العينين، تناسيت عدد الطوابق في البناية المقابلة، عدتُ من جديد، لأحصي ما تمَّ تشييده، مالي أنا بكل هذا؟ لماذا ينشـغل ذهني بها؟ أعدتُ إغلاق الستائر، استبدلت ملابسي على عجل، وارتميت على السرير، لم يكن لديّ ما أفعله غير النوم، الرحلة الطويلة أرهقتني، مثلما يحدث مع كل رحلة سفر تحملني من الشرق الأوسط، عبر أحد المطارات الأوروبية، حين تحط في تورونتو، يكون الإنهاك قد استولى على

كياني، فلا أتمكن من إعادة التوازن إلا بعد ساعات من النوم، لا تنتهي إلا بقدوم اليوم التالي ، وإعادة ضبط ساعة الجسد البيولوجية، اعتدت هذه الرحلة، لكنَّ تقدم العمر، يضاعف معاناة الجسد، ويقلل القدرة على الاحتمال ، هذه المرة كان هناك ما ظل يدور في رأسي، فلم أتمكن من اصطياد النوم.

عادت الذاكرة تسترجع تلك الأحداث البعيدة، شذرات مما جرى مع "منير" و"هند"، وقت أن كانت قصة الحب التي جمعت بينهما تتداول بين أصدقائنا المشتركين ، خطوط عريضة اقتحمت ، سرعان ما راحت تتفرع إلى تفاصيل صغيرة، تلك الأحداث القديمة عادت تمر مثل شريط معتم، وبعد وقت، راحت البقع المشعَّة تضيء في وسطها، وتتناثر، لكنها ظلت تعود لتنتظم في عقد، مثل حبات مُتراصَّة، تتلاصق وتفضي الواحدة منها إلى الأخرى، باتت القصة منذ بداياتها مرتبة في تسلسل واضح، كأنها لم تكن قد حدثت قبل ثلاثة عقود.

عجيبٌ هذا الجهاز الذي يختبىء في مكان ما داخل الكيان الهش، يسجل في دأب كل التفاصيل، ثم يستبعد منها ما يشاء من وقت لآخر، كلما لم تعد لها حاجة، لكنه كثيراً ما يُسعفنا في معظم الأحوال، كثيراً ما يسعفنا إن وقعنا في مواقف، تحتار فيها العقول.

في تلــك اللحظــة التي هرب فيها النوم مــن عينيّ، أطلَّتْ التساؤلات، وراحت تتدافع، وجدتني أتأمل في تبدلات العشق، كيف تنقلب المشــاعر من النقيــض إلى النقيض؟ وكيف ينمو الحــب وتنضج الثمار، ثم تنطفئ جذوته بمرور الوقت؟ كيف يخفُت البريق؟ وكيف يصاب الشغف بالوهن، حتى يتلاشى؟

حــيَّرني ذلــك ، وأنا في اســتغراقي، أســتجدي لحظات من النعــاس، لأزيــل بها عناء الرحلــة المتعبة، لم أكــن قادراً على تجاهل ما جرى قبل ساعات في المطار، مفاجأة أحسها صاعقة، حين جلبت لي فرحــاً، برؤية صديق، وأعادت لي ذكريات صبا أحِــنُّ إليها، رمت زلزالاً في وجهي، فكيف يصدق من كان على صلة بقصــة ذلك الحب العنيف مثلي، أن التي ارتمت بكيانها في أحضان "منير" قبل ساعات، كانت أنثى أخرى ، غير "هند"؟

***

عند الظهـيرة، رنَّ الهاتف، حدَّد لي "منير" الموعد والمكان، تعمـد أن يكـون على بعد خطـوات من الفنـدق، رحت في لحظـات الانتظار، أطِلُّ على الطريق من نافذة الغرفة، زخَّات المطر ظلَّت تتواصل، ومع تزايد كثافتها، أخذت الشوارع تزداد التماعاً، ويتدفَّق الماء بعد تجمعه، ثم يتجه نحو مصبَّات شبكيَّة عـلى الجانبين، تعـرف الأمطار طريقها في تلـك البلاد، وتتجه في يُـسر نحو مصباتهـا. بعد دقائقَ ، كانـت المياه قد تمكَّنتْ من غسـل الأسـفلت لكن الوقت كان يمر عليّ في تثاقل، تأثر سكان المدينة الكبيرة بنتائج إضرابٍ نفَّذه عمال النظافة،كانوا يحتجُّـون على ضآلة الرواتب، النفايـات ترنَّحت على جنبات الصناديـق، وهي ممتلئة عن آخرها، كانـت لامعة، وتتقاطر منها المياه، بدا الأمر لي يحمل مفارقة، البنايات الشاهقة التي توحي بالرهبة، الشـارع الممتد الذي يدفـع برائحته العتيقة إلى الأنوف، الحيـاة الصاخبة التي لا توقفها تقلبات الطبيعة، والبـشر الذين حولتهـم تلك المظلات التـي تحتمي كياناتهم تحتها، إلى هياكلَ شجريةٍ متنقلة، فيما أكوامٌ من الأكياس من مختلف الأحجام تتجمَّع في شـبه دائرة حول صناديق المزابل، دون أن يتناثـر منها، أعقاب سـجائر، أو زجاجات المشروبات الغازيـة، ولا المناديل الورقية، كل شيء كان منتظماً في مكانه، بانتظار أن يفضَّ العـمال إضرابهم، ويبدأوا في نقل الصناديق

إلى مآلها.

حين راحت الشمس في حياء، تبحث عن باب الكهف الذي اعتادت اللجوء إليه، لتستريح من ساعات عملها الطويل، تذكرت أن الموعد قد حان ، ارتديت ملابسي على عجل، ومضيتُ أقطع طريق "لومبارد"، حتى وصلت إلى شارع "فيكتوريا"، كانت الأمطار قد توقفت، وعادت الشوارع إلى طبيعتها، كأنها لم تكن تُمطر بغزارة، صناديق النفايات في مكانها تطوقها أكياس الزبالة، غير أن الأرض ظلت نظيفة، دون أن ترقشها بقع الأوساخ التي دائماً ما نشاهدها في بلادنا دونما حاجة لإضراب عمال النظافة، من شارع "فيكتوريا" انحرفت عدة أمتار إلى اليمين، قبل أن أتجه يساراً ثم أستمر في سيري، حتى وصلت أخيراً إلى مدخل مجمع "إيتون"، الذي لا تهدأ حركة البشر فيه، إلا وقت الإغلاق.

بحثتُ عن مساحة لأنفُذَ عبرها من تكدس كانت تشهده البوابة ، انتظرت قليلاً، لاحت الفرصة، تقدمت خطوة بعد أخرى، وضعت قدمي على أول درجات المصعد المتحرك، وهو يتجه إلى الدور الأرضيّ، وقفت مع عشرات البشر، من بينهم صغار في العمر،لم يتركوا الوقت يمر، دون اقتناص قبُلات متقنة، حتى وهُمْ يمتطون السلم الكهربائي.

في الأسـفل، كان المكان رحباً، تنتشر على جانبيه مئات من المحـلات التي تبيع كل شيء، وتتوسـطه مطاعـم وكافيهات يتناثـر مرتادوها حول الموائد، ظللـتُ أدور في المكان، أبحث عن اسـم الكافيه الـذي حدَّده لي، في آخـر مكالمة معي وأنا في الفندق، ما أنْ عـثرتُ عليه، حتى رحت أبحث عن "منير" وسط حشد البشر الذي احتلَّ جميع المقاعد، من قبل أن أراه، لمحني هو، هبَّ واقفاً ليرشدني إلى طاولته، اتجهت نحوه، بينما كنت أُحدِّق في خريطة وجهه، اختفى شعره الناعم، واندسَّت بين السـواد شُعيرات قليلة بيضاء، كان ذلك الشعر هو أكثر ما يميزه، عندما كان ينسـدل على الجبين، ويغطي الأذنين هابطاً منها إلى الأكتـاف، في الزمن الذي انتشرت خلاله موجة تقليد الهيبيز، اختلف الأمـر الآن، لم يعد مثلما كان، تذكرت بنطاله الشارلسـتون، وأكمام قمصانه المفتوحة، تذكرت أيضاً، هوسه بحضـور الحفلات الصاخبة التي كانـت تقام من وقت لآخر، في حديقة قصر المنتزه بالاسـكندرية، تلـك هي الصورة التي ارتسـمت لمنير في الذهن، ظلَّتْ تتوغَّل وتسـتقر عندي، على الرغم من مرور الزمن.

حين اقتربت، اتسعتْ مساحة الابتسامة فوق وجهه، تبادلنا عناقـاً أكثرَ حرارةً من الـذي كان بيننا بالأمـس، فيما الصبايا

كُنَّ يملأن المكان بهجة، يرسمن الضحكات وهن يتهادين كالفراشات، بينما يقبض العشاق على أكف بعضهم، ليمنعوا خروج الفرح من الشرايين.

كان المشهد مفتوحاً لاستعادة تلك الذكريات التي انقضى عليها زمن طويل، أعادت رؤية العشاق في باحة المجمع إلى ذهني ملامح أيام في الجامعة، جرت وقائعها في ظروف حياة مغايرة حطَّتْ بثقلها فيما بعد، وفرضت على الناس الهموم.

جلستُ على المقعد المقابل، تركني وحدي ومضى نحو صانع القهوة، انشغلت بتصفح جريدة كانت فوق الطاولة، لا شيء يحفز على القراءة ويدخل إلى النفس البهجة، الشرق الأوسط أيضاً، يطاردني بأحداثه، حتى وأنا هارب منه، لألتقط أنفاسي في كندا، ثورات محبطة، وانكسارات تخادع البشر في أثواب زاهية، حين نظن أننا تخلصنا من كوارث الطغاة، نسقط في مصائب التفكك والانقسام وضياع الأوطان، طعم المرارة يتسرَّب إلى الحلق، أطوي صفحات الجريدة، وأحاول استعادة هدوئي، قبل أن يعود ويرى علامات الاكتئاب فوق ملامحي.

بعد دقائقَ ، عاد وهو يحمل فنجانيْ قهوة، دار في ذهني سؤال عن السبب الذي يدفعه لاختيار ذلك المشروب لي، ماذا لو أني كنت أفضل غيره؟ كبَحْتُ السؤال، ووجدت العذر له،

تذكـرت أن القهوة كانت مشروبنا المشـترك في الأيام البعيدة، حينما كنا نتسكّع كل مساء على مقاهي البلدة ، رسم ابتسامة باهتة، وقوّس حاجبيه، قبل أن يقول:

- "قرأتُ التعبيرات التي ظهرت على وجهك، شـاهدت الصدمة، حتى وأنت تسعى لإخفائها".

- "المفاجأة...؟"

ارتكبتُ للحظاتٍ، وحين استعدتُ توازني، أكملت:

- "كانت من العيار الثقيل".

ابتسـم، مدَّ يـده وتناول جرعة من فنجـان القهوة، وراح يواصل:

- "هـي الحياة، بشر يلتقـون، وبشر يتباعدون، في كل الأحـوال، لا تتوقف الحياة، الـزواج لم يكن في أي وقت بداية العالم، ولا كان الانفصال نهايته".

اندفعـتُ دون انتظار الانتهاء من بقية كلامه، قلتُ بلهجةٍ تحمل الكثير من الثقة:

- "لكنْ، فى مثل حالتك، يختلف الأمر".

عاد إلى رسم نفس الابتسامة، بدا وجهُه أكثرَ هدوءاً هذه المرّة، قرّب الفنجان من فمه، تناول جرعة جديدة، وراح يحرك يده لتساعده في شرح ما أراد إيصاله:

- "أعد ترتيب الأمور في ذهنك، ستجد أن ما جرى كان نتيجة طبيعية".

قال ذلك في هدوء، كأنه يقرر حقيقة ينبغي أن تُعرف سلفاً، غير أن التساؤلات صعدت إلى ذهني من جديد، لم أشعر وقتها إلا وهي تخرج منّي لتطرح عليه، دون أي محاولة لتلطيفها:

- "أنسيتَ أنني كنتُ أعايش القصة التي كانت بينكما؟ ألم تعد تتذكر أن خطاباً كان يصلني منك ، في بداية كل أسبوع، حين كنا في جامعتين متباعدتين، لتبلغني بتطورات العلاقة؟"

ابتسم وهو يهزُّ رأسه، لمعت عيناه ببريق ، أعاد إلى ذاكرتي أوقاتاً مشابهة في زمن سابق، ردَّ بنفس الهدوء ليؤكد:

- "أتذكر، حين كنت أنت في جامعة أسيوط، وأنا في طنطا ؟ كنت أرسل بما لا أبوح به لغيرك، لعل الأتربة والقوارض التهمت تلك الرسائل".

شعرتُ كأنَّ الزمن اختطفني فجأة، انزلق بي بعيداً إلى نفق

لا تلـوح له نهاية، عندها لمع في الذهــن بارق مُغلَّف بغَبَش، رحتُ أردد:

- "لازالتْ ضمــن أوراقي القديمة، تركتها داخل الخزانة في بيــت أهلي، قبل أن أغادر إلى غربة طويلة قادتني إلى بلاد أخرى، لازلــتُ على يقين من أن المرحومة أمــي لم تفرط بها، ولعلها أوصت أحد الأشقاء بحفظها لي".

لم أكــد أنتهي من نطق الجملــة، حتى لاحظتُ أن اللمعة التــي كنت رأيتها في عينيه تخفــت، ثم تنطفئ، ويبدو الحزن عليه عميقاً:

- "في كل الأحــوال،لم يعــد الأمر مُفيــداً، انتهى كل شيء، حدث الفراق واتجه كل منا في طريق، باتت لي حياتي، وعثرت هي على طريقها الآخر".

لم يُــثِرْ ما قاله لديّ دهشــة، فمنذ المشــهد الذي رأيته في مطار "بيرســون"، وأنــا على يقين من أن القصــة انتهت، وأن الــذي كنت أعايش أحداثه، انطــوى داخل غلالة قاتمة، لكني دون قصد، كنتُ كمن يتشــبَّث بالذاكرة، ولا يريد التخلي عن أي جزء من تفاصيلها:

- "لا أظنُّ أن النسيان ، كان سهلاً في مثل حالتك".

-"كان بالـغَ الصعوبة، لكني حاولـت الهروب من مصيدة الألم، كوّنـت عائلة جديـدة، وأعيش حالياً مـع زوجة طيبة، سـعتْ لتعويضي عن ما سبَّبه لي فشلُ تجربتي الأولى، "هند" هي الآن مجرد ذكرى، حتى وإن كانتْ مسـاعي الشـفاء من آثارها مؤلمة.

*****

الفصل الثاني

• " ما أجملَ اللحظةَ التي تتمنَّى فيها أن تستمرَّ الحياة طويلاً ، حين يتوسَّد جبينك صدر من تحب ، ما أروعَ الشعورَ الذي يغمُرك، حين تجدُ ذراعيه يُحِيطـان بكيانك, وتدرك أن أذنك لا تسـمع إلا هَمسـاتِه ، فيما تتسلَّل نبضاتُه في نعومةٍ إلى شرايينك ".

حين أطلَّ قوسُ قزح، أينعتْ زهرة التوليب، شعَّتْ ألوانها وتماوجت، بعض المعاني التي تحملها، تعني البوح بمشاعر الحب، تعرف "هند" هذا جيداً ، لأنَّها حين رأتْ يده وهي تقبض علي الزهرة، أدركتْ، أنَّ هناك تفسيراً وحيداً له، لم يعد "منير" مجرد زميل بدأ الحديث معها بالصدفة في مدرج الكلية، وأنه كان ينتهز أي فرصة ليتبادل معها الحديث، أبلغتها شفرة الأنثى، أن هناك شيئاً مَّا يتشكَّل، وهي لم تشعُرْ بأنَّ لديها ما يرفض، هذه المرة باتت على يقين من أن تلك العلامات، التي بدتْ واضحةً لها كشعاع الشمس، حين يسطع فجأة ليشقَّ ستائر العتمة، أن الإشارات التي تصدر منه، باتتْ تتعدَّى الطقوس التي تُؤَدِّي في بدايات العلاقة، وأنَّ الأمر تحوَّل إلى اهتمام فوق المعتاد.

بدا حدسُها صادقاً، حين اقترب منها، مادّاً يدَه ليُهدِيَها واحدةً من تلك الزهور التي تتخذ شكل الجرس المقلوب، كان الأمر مثيراً، حتى وإن كانت قد توقعت في مرات متتالية، أن إشارة غامضة، التفاتة حيِيَّة سوف تأتي إليها يوماً ، ولعلَّ ذلك هو ما جعلها تنتظر منه تعبيراً أكثر جرأة، رسالة تأتي لفتاة من الشاب الذي استطاعت أن تقرأ مدى الشغف، وهو يكاد

ينبثق من ملامحه، بعد أن ظل يسكن في أكثر من مقابلة على وجهه.

تحت الجلد، سرت ارتعاشة خفية، تيار من كهرباء يشق طريقه تحت الجلد، ويلامس في تشظيه المسامات التي تكسو جسده ، استقرت تلك الرعشة داخل الصندوق شديد الغموض، الذي يسكن داخل أجسامنا في العادة، يحدد لنا درجات المشاعر، ومساحة الابتهاج، ويوجهنا إلى طريق دائماً ما نسلكه حين تتلامس أطرافُ مشاعرنا مع بدايات أنامل الآخر، نحب بعنف، أو نكتفي بالإعجاب، ونلوذ بعدم البوح، نواصل المغامرة، فنذوب في رحيق الوجد، ونحترق رُبَّما، لكننا نشعر براحة ليس يجلبها سواه، نشقى، نتحمل أقصى درجات العناء، ثم نبتهج من أعماقنا ونبحث عن المزيد.

أدركت "هند" أن القلب هو الذي يسكن، وحين تماوج لهيب الأشواق فيه، أيقنت أن "منير"، لم يكن يسعى لإضاعة مزيد من الوقت، فحين قدم لها الزهرة، بينما كان وجهُه ينضح بخيوط خفيفة من العرق، أيقنت أن الأمر يقترب ليس من مجرد إعجاب عابر، بل مما هو أكبر، الحب الذي تتحدث عنه أغاني "عبد الحليم حافظ"، والذي يرتسم بجلاء على وجهه حينما كان يقترب من لحظة البوح بمشاعره لفاتن حمامة في فيلم " أيامنا الحلوة ".

أضاءت التوليب وجه "هند"، وبعثت في قلب "منير" رجفة، كانـت تعني أن عهداً وثيقاً بات يحثُّهما على إكمال المشـوار حتى منتهـاه، لكن تلك النهاية احتاجـت إلي الانتظار لثلاث سنوات أخرى، هي الفترة التي تبقَّتْ على موعد الحصول على شـهادته الجامعية، والتهيؤ للوظيفة التي ستسـاهم في إرساء أعمدة عش الزوجية.

لحظة واحدة فارقة في العمر، بدأت بتلك الزهرة التي تشبه العمامة التركية، ثم قطعت شـوطاً طويـلاً ، تبادلا فيه مئات الزهرات من مختلف الأنواع والأشكال ودرجات الروائح، لكن بقيت التوليب في كل مرة دليـلاً يقودهما نحو عبور مطبَّات الطريق في سلاسة، حتى أوصلتهما في الختام إلى ذروة البهجة.

من مجمل تفاصيل عايشتها لحظة بلحظة، وصعدت بعض ملامحها إلى ذهني، تذكرت رسـائل "منير"، كنتُ قد أصبحت علـى قناعة من أن الأمـر لم يكن، في أي حـال، مجرد ألعاب صبيانيـة لقطع أوقات الفراغ، أو لجلـب متعة، أطارت النوم من أعين العاشـقين، بقدر ما كان يعني تحدياً ، وسباقاً مُضنياً، في مضـمار ظل يعمـر في بعض الأوقات، بقطـع متراصَّة من صخور مدببة، لكنهما كانا قد تعاهدا على كسب رهانه، مهما كانت الكُلْفة.

حـين أتذكر ذلك الآن ، لا أصدق أن النهاية جاءت في ذلك المشـهد الذي رأيته داخل صالة في مطـار تورونتو، من بعده رحت أطرح ضفائر من التسـاؤلات: إذا كان الحب، هو أجمل المشاعر التي أهدتها الحياة إلى البشر، نشعر حين تجذبنا إليها أننا في عالم باذخ البهجة، نتخيل أنفسنا طيوراً تحوم في الأعالي، لا يقدر هذا العالم باتساعه، على استيعاب الفرح وهو يزدحم داخلنـا، إذا كانت السـعادة التي يمنحها الحـب تتقافز من الأعين، وتحلق بنا إلى حيث لا نشعر بالمكان الذي نقف عليه، ولا الزمان الذي نعيشه، إذا كان كل ذلك يحدث بمجرد تبادل كلمة واحدة لا تزيد عن حرفين، فكيف يمكِنُ لهذا الإحسـاس أن ينتهـي في غمضة عـين؟ كيف يرحل بعيداً ، وتنتهى الأيام الرائعة بعد ما تعايشْـنا معها؟ كيف يتبخَّر شعور أنار العمر يوماً، يؤول إلى خفوت ، وكأنَّ شيئاً لم يكن؟

منذ تلك اللحظة، التي باغتتني في المطار، أدركتُ أنَّ شـيئاً له طعم الألم، بدأ يجتاح جانباً كنت أظنه عَصِيًّاً، ظللتُ لوقت، ألجـأ إلى قصة "منير" و"هند"، ونجاحهما في كسـب الرِّهان، والقدرة على تخطى معظـم العقبات التي وضعت في طريق الزواج، كلما تحدث أحد الأشـخاص أمامي عن قصص لفشل أصاب من تزوجوا عن حب.

بعـد ما أكد لي "منير" قصة الانفصال، سـطتْ على ذهني

فكرة الذهاب في أقرب فرصة إلى البلدة، ربما عند العودة من المدا عبر القاهرة, سأشبع فضولي لو فعلتها وتوغلت عميقاً في بقايا الزمن البعيد، هناك سأفتح خزانة أوراقي، التي تركتها في منزل الأهل، وقتَ أن حملت حقيبة الملابس ومضيتُ وحيداً، مغادراً إلى مكان العمل في منطقة الخليج.

منذ أن استقرَّتْ أقدامي في تلك البلاد، وانشغلت بالعمل المتواصل، لم تخطر على بالي، ولو مرة واحدة، ما هو مكتوب في تلك الأوراق، لم أفكر أصلاً في المصير الذي آلتْ إليه، بعد أن ماتت الأم، واقتسم الأشِقَّاء الميراث.

لم يحدث أن تذكرت، منذ أن أخذتني الغربة بعيداً، أنَّ لي أوراقاً كنتُ أحتفظ بها وأراها في ذلك الزمن، هي المقتنيات الوحيدة التي أملكها، وعلى الرغم من تعدد أسفاري إلى مصر، سواءً في إجازاتٍ صيفية متفرقة، أو عند كل توقف بين الرحلات الطويلة للترانزيت في المطار، كثيراً ما انتهزت الفرص التي أتيحت للذهاب إلى منزل العائلة، غير أني بمرور الأيام، الماسيت حكاية الخزانة، ولم أعد أتذكر عند أي من الورثة استقرَّت، وما إذا كانت لاتزال محفوظة, أو أنها تلاشت مثل أشياء كانت عزيزة على القلب، ذات يوم بعيد ، لم يكن ذلك الهاجسُ بعد مرور كل تلك السنوات قد غازلني ، لعلَّ طبيعتى التي تفضل إرجاء الأشياء، حتى يحين موعدها ويصبح الانتباه

نحوها مُلِحّـاً، هو الذي كان وراء عدم تذكـري تلك الخزانة حتى انسـدل الغطاء ثقيلاً على الأمر برُمَّته، بعد أن مرَّت سنة إثر أخـرى، وفرض الاعتيـاد كلمته، تناسـيت الخزانة، مثلما تناسيت قصة حب "منير" و"هند"، واختطفتني دوامة العمل انغمستُ فيها حتى غاصتْ رأسي، وتكفلت الأيام بتفتيت آخر خيوط الصداقات والصلات، مثلما تمكنت سـنوات الغربة من تجفيف منابع الذكريات.

قررت في إحدى المـرات، أن أفعل ما كان ينبغي أن أفعله قبل مرور المزيد من السنوات، وأن يتمَّ ذلك خلال العودة إلى الخليج بعد أن أتوقف في مطار القاهرة، سـوف أمدد عودتي عدة أيام، أقضيها في البلدة، هناك سـوف يكـون عليّ القيام بمهمة واحدة، البحث عن الخزانة، وإحضار الرسائل التي كان "منير" قد أرسلها بانتظام لي طيلة السنوات الثلاث الأخيرة من الدراسة الجامعية.

لم تدُرْ في ذهني هواجسُ تدفعني إلى التردد، لم أسأل نفسي وأنا في لحظـة حماس نادر، ما الذي يسـتهويني في الأمر؟ ما الذي يعنيني في الأسـاس من صديق أحـب الفتاة التي تعلق قلبه بها، ثم تزوجا؟ وبينما تمكن الحب بقوة، وتُوِّجَتْ العلاقة باقـتران، فإنَّ الـزواج لم يسـتطع الصمود، مثلـما يجري مع زيجات كثيرة تتهاوى كل يوم في فضاء العالم، ما الذي يدفعني

الاهتمام فجأة، وكأنَّ الدنيا سـوف تنهار على رؤوس ساكنيها، إن لم أتحرّك أنا للبحث عن إجابات لتساؤلات تبدو في النهاية مادية؟ ما الذي سيتغير إذا لم أتوقف لأطرح أسئلة لم تكن مطروحة في الأصل؟ كان الهاجس الذي تلبَّسني في تورونتو، يحرض على إعادة قراءة رسائل "منير"، والتأكد من أنها كانت تستحق هذا التوهم الذي ظننته من حقائق الحياة.

بعد العودة، حدث هذا، اتخذتُ طريقي من مطار القاهرة إلى بلدتي، كان فيلم "دقة قلب" لمحمود ياسين وميرفت أمين يتواصل عبر التليفزيون المعلق وسط الحافلة، بينما أخذتْ تتهادى على الطريق الزراعيّ المتجه إلى الاسكندرية، استغرقتني مشاهده المتتابعة والحوارات، بدتْ متشابهة مع الحالة التي تلبّدتني، كانت أحداث الفيلم تقفز إلى الذهن متزامنةً مع الوقائع التي سمعتها من "منير" في تورونتو، بدا لي أنَّ ما ورد على لسان محمود ياسين يشابه كلامه، وأنَّ لميرفت أمين ملامح "هند"، نفس الشغف الذي كان يربط بين العاشقين، الحب العارم الذي تتوافر فيه مُقوِّمات الصمود، لكنه ينهار عند أول هزّة، استغرقني الأمر، ألقيت بحواسي، وأصغيت، فتحت عينيّ على آخرهما، كانت القصة شبيهة في بعض معانيها، وكانت النهاية أيضاً، تدور حول نفس المأزق الذي يتحول الحب عنده من عاطفة محتشدة بالرقة، وتصبح فيها غاية المنى للحبيب

أن يـذوب في المحبوب، وأن يتقدم لفعل المستحيل كي يظ
بالحيـاة إلى جواره، إلى نهاية يتمنَّى عندها بعد أن صار زوج
أن يخـسر العالم، ويضحى بالغالي والنفيس من أجل أن يحقِّ
هدفه الجديد: التخلص من هذا الشريك الذي تحولت الحي
معه إلى جحيم.

بدايات متشابهة، ونهايات لا تخلو من عبث ، يختلط فيـ
المعقـول بالأخرق، وتختل موازين تعارف عليها البشر على د
الأزمان، لتنتهي بعدها مسيرة الحياة بحلوها ومُرِّها إلى مأسا
نهاية أشد بؤساً وتعاسةً من كل ما سمع به البشر.

جذبنـي الفيلم الذي ظـلَّ يتواصل عبر الشاشـة المعلق
كأنَّني كنتُ أشـاهد تلك الأحداث لأول مرة، رحتُ أنظرُ للأ
برُمَّته مـن زاوية مختلفة، ما الـذي تحتاجه علاقة الحب
تنتهيَ بالشكل المرتقب؟ هناء دائم ، وعشق متوهج، وإخلا
لا يهتـزُّ بعاصفـة عابرة، وتفاهم لا تُعيقـه في أي وقت قِطَ
مـن أحجار تلقى في طريقه، أو تجرُّه إلى مصائدها كل الشِرَا
المتناثرة، التي يتمُّ نصبها لإعاقة المسـيرة عن شق طريقها نح
ذروتها المبتغاة؟

أدركتُ وأنا ألملم شذراتٍ بدتْ لي الأكثرَ وضوحاً في الحكاي
بعد أن تمكنت من إزاحة كتل من سـناج قاتم ظلت تغطيه
أن علاقـة "منـير" و"هند"، التي تصورتهـا نموذجاً لأي رباط

بين حبيبين، وأنها سوف تستمر حتى نهايات العمر، اتخذت مساراً آخرَ ، لم أكن قد توقعتُه في أي وقت، أدركت بعد الذي سمعته، وبعد ما رأيت بعينيّ ، أن هناك ما ينبغي إعادة النظر فيه، تلك المسلَّمات التي استكان لها البشر، واعتقدوا أنَّ الشكَّ ليس يأتيها، تلك الافتراضات التي عاش عليها كثيرون، وساروا على هداها، تحوط بهم الطمأنينة، مع أنَّ أحداً منهم، لا يمكنه التحدث بيقين، عن أن المقاييس التي ترسَّخت في الأذهان، ممكنت في نهاية الأمر من إثبات أن حبَّ ما قبل الزواج، وإن تحقَّق فيه الوصال، تمكن من الصمود لبضع سنوات، قبل أن ينتهي برفع شعار الانفصال التام أو الموت الزؤام، وأنَّ من أفلت من تلك المعادلة، اكتفى بقبول أن تسير الحياة وفق مبدأ "لا غالب ولا مغلوب"، حين يعيش الزوجان اللذان كانا في يوم ما عاشقين شديدي الوله، في صمت مطبق، وأقرب إلى ممثالين جامدين، فقدا البهجة، واستكانا للرتابة.

هذا الهاجس هو الذي سيطر على تفكيري، رافقني خلال الأيام القليلة التي قضيتها في تورونتو، وظلَّ معي حتى وأنا بين أفراد عائلتي في مونتريال، واصل السيطرة على ذهني بينما كنتُ مربوطاً إلى مقعد داخل الطائرة طوال ساعات من التحليق في فضاء العالم، احتلَّ تفكيري ما جرى أمام عينيّ عند صالة انتظار الحقائب في مطار بيرسون، وما سمعته أذناي من

"منـير" في كافيهات المدينة، مثلما ظلت التسـاؤلات تطاردني وأنا أنتقل عبر حافلة نقلتني إلى الإسكندرية، وفي سيارة الأجرة التي حملتني محشـوراً وسـط عشرات الأجساد، ظلت رائحة عرقها تشـعرني بالاختناق، إلى بلدتي الواقعة على بعد عشرات الكيلو مترات.

لم أسـتطع الوصول إلى أخبار عن تلك الخزانة، حين رحتُ أفتـش من مكان إلى آخر، كيف لي أن أعثُرَ عليها والأمُّ فارقت الحياة، والشـقيقات انتقلن منذ سـنوات إلى بيوت أزواجهن، وتفرَّقت السـبل بجميع الأشقاء ، من أين لي أن أعثر على تلك الخزانة؟

مـا الذي كان يدفعني إذن ، لمواصلة البحث عن الشـقاء؟ لسـت أعرف لهذا التساؤل إجابة ، تماماً مثلما لا يعرف البشر في غالـب الأحيـان طريقـةً للعثـور على إجابـات لتصرفات مفاجئة، يقومون بها منسـاقين في دأب، ودون أن يدركوا سبباً واحداً لذلك، المشاركة في سـباق للسيارات وسط الصحراوات القواحـل، حيث ارتكاب أقل الأخطاء يؤدي إلى هلاك محتوم، أو خوض مغامرات الرحيل وسـط أدغال شديدة الخطر، بحثاً عـن الإثارة، نعم هي الإثارة، راقـتْ تلك الكلمة لي حين كان رأسي يلف ويدور، يسـألني عقلي الباطن عن سـبب الاندفاع وراء جنون كهذا، ليس له من نتيجة سـوى إضاعة الوقت ، في

أمر باتَ منتهياً ، ولا رادَّ له.

ما حدث قد حدث، وانتهت كل الأشـياء بذكرياتها العاقلة والموغلـة في الحماقة، لكني على الرغم مـن ذلك، أرتكن إلى كلمـة الإثـارة، وأرى أن ما أقوم به، ليس لـه أيُّ فائدة، لا في الوقت الحالي ولا في القادم، أردتُ الدخول في نقاش مع عقلي الباطن حول سـؤال رأيتُه مُهمَّاً: هل يمكن للحب في عزِّ تألقه، أن يؤدي إلى الجحيم، تماماً مثل ما تنتهي بعضُ النوايا الطيبة؟ وهل يُعَدُّ انفصالُ اثنين كانا في وقت مَّا غارقين في الحب كارثة؟

اسـتغرق البحثُ وقتاً، انطلقـت إلى كل ركن ، كانت تلوح لي فكـرة العثور فيه على الأوراق المخبأة، كنتُ أدرك في بعض اللحظـات أن ما أفعله هو العبث بعينه، لا يمكن لأحد يعيش حياة مسـتقرة، تنتظم فيها معظم أمور حياته، أن يقرر فجأةً تركهـا، لينطلق في لحظاتٍ نَزِقَـةٍ، مدفوعاً بأوهام مجنونة، كي يبحث عـن أوراق قصـة أكل الدهر عليهـا وشرب، توقفت لبعض الوقت، وكأني أعتزم تغيير مسـار اندفاعتي، الكف عن إضاعـة مزيد مـن الوقت، لكني من جديـد كنت أغلق هذا الباب، رافضاً النصائحَ المتتالية التي أخذ عقلي الباطن يُسديها إليّ، استسغتُ عناداً قادني في النهاية إلى رفض النظر إلى الوراء، ومواصلة التقدم في عملية البحث، مهما كانت النتيجة.

***

في الوقت الذي كان "منير" في مواجهتي، يؤكد وهو يسند مرفقيه على الطاولة الدائرية، أن الانفصال كان الطريقَ الوحيد، الذي تبقّى أمامه، بعد أن اصطدمت علاقته مع "هند"، خلال الشهور الأولى بجدار مسدود، وجدتني أهُبُّ ، دون أن أقدر على كبْح الدهشة:

- " زواج لا يستمر أكثر من عدة شهور، بعد أربع سنوات من الحب ! " .

بهتتْ التماعة عينيه فجأة، بعد أن مرَّ أمامها طيفٌ حزين، سارع إلى الإمساك بخيوط الحديث، نقر على الطاولة بسبابته، وراح يقول:

- "طفا الخلاف فوق السطح منذ الشهور الأولى، ثم راح يتنامى بمرور الوقت".

نُتَفٌ من العبارات التي كان يكتبها في خطاباته القديمة، صعدت فجأة إلى الذاكرة، كأني كنتُ أقرأها وأنا جالس أمامه، دون حاجة إلى النبش في الخزانة، واصلت تساؤلاتي، كأني كنتُ أسعى من دون قصد ، لنكءِ جراحه:

- "هل عجز رصيد الحب عن إطفاء الخلافات؟" .

بدا وجهُه هذه المرة باهتاً ، تخيلته يعاني الإعياء، حتى

وهو يقول:

- "الحـب يا صديقي يحتاج في كل وقت إلى رعاية، كنا نظن أن الأمر لا يتطلَّب بذلَ مجهود للحفاظ عليه، وأنَّ النجاح في تحقيـق نهاية سـعيدة لوقائع الحكايـة، كان وحده غاية المراد، المشـكلة تكمن في اعتقادنا أنه يكفي أن نقبض بأيدينا على الحب، ليظلَّ طوال العمر يانعاً، لم نضع في الحسـبان، أنه كان علينا التحلِّى بـدأب محارب يقاتل للانتصار، ومُزارع ينثر البذرة ويظل يرعاها, حتى وقت الإيناع.

- "ظلَّـتْ تنظر إليك، بنفس العين التي كانت تراك بها، توقعـت أن يمتلئ عش الزوجية بنفس المشـاعر الدافئة التي كانت تتطاير حولكما، وأنتما عصفوران طليقان يعيشـان على الاشتياق واللهفة والحنين، هل شعرت سريعاً بالخذلان؟

كأني ألقيتُ له من خـلال تلك الكلمات بحبل نجاة، بدتْ الانفراجة على وجهه، نظرَ نحوي، وقال:

- "هـو الـذي حـالَ بيننـا، انتظـرت أن أتعامل معها بالطريقة القديمة التي كنت عليها قبل الزواج".

قـال ذلك، ثم مدَّ أصابع يده إلى ياقة القميص ، راح يتأكد من بقائها في مكانها، فعل ذلك عدة مرات منذ بداية الحديث، لكنه لمـا كرر ذلك، انتبهت إلى أن نفس اليـد، كثيراً ما كانت

تتحسَّس ياقة قمصانه، وكان يثير لدينا في زمن سابق تندراً ، تغاضيتُ عما شاهدت، وسألته:

- "وما الذي منعك؟"

- "الأمر اختلف، قبل الزواج كنتُ حريصاً على إقناعها بأهمية أن نعيش معاً تحت سقف واحد، هذا الهدفُ تغيَّر بعد أن اجتمعنا، ذهبت مخاوفي، وكان عليها أن تنظر إلى الأمور بمنظار مختلف".

مع كل كلمة كان ينطقها، كنتُ أستعيد أحداثاً جرتْ ، راح شريط الذكريات يقتحم رأسي، يمر سريعاً للحظات، ويتباطأ عند مشاهدَ بعينها، كانت أذناى مفتوحةً لما يقول، لكنَّ انتباهي كان مُوزَّعاً بين التحديق في ملامحه، والصور التي راحت تتداعى، وتعيدني إلى أحداث بعيدة ، قلتُ لأمنعَ اتهامي بعدم الانتباه:

- "لكنَّ المرأة تظلُّ دائماً، في انتظار لمسات حانية، كلمات رقيقة، إن لم تأتِ من الرجل الذي تحب، ممَّنْ أصبح زوجها، فمِنْ مَنْ؟ سقف التوقعات، يرتفع في الفترة التي تعقب إتمام مراسم الزواج".

سحبَ نفساً طويلاً ، سمعت صوت تنهيدته، ورحت أشفق عليه، بدا الصوت لي وكأنه خارج من أعماق سحيقة:

- "الظـروف تغـيَّرت، الحب الـذي جمعنا، كان في أيام الجامعة، وقتها كنا نعيش اندفاعة الشباب، ولكن بعد الزواج، اختلف الأمر، هناك أسرة تكوَّنت، وحياة ينبغي لها أن تستمر".

- "وهـل يعنى ذلـك أنَّ الحبَّ ينبغـي أن يموت، وأن يتحـول الحبيب إلى مجرد زوج تقليديّ، كأنه قبلَ الزواج كان يؤدى دوراً في مسرحية، ما إن انتهى منه، حتى أخرج لسـانه، وأعلن انتهاء اللعبة؟" .

لم أكـن أتصـوَّر أن الأمـور يمكن أن تـؤول إلى مصيرٍكهذا، كانـت لـديّ قناعة بأنَّ من عاش تجربة تشـبه مـا مرَّ بهند ومنير، يمكن له بسهولة تخطي العقبات التي قد تعترض مسار حياته الزوجية، الحب الذي ترسَّـخ في يقينـي، هو القادر في كل الأوقـات على بـثِّ الطمأنينة، والتسـامي فوق كل عقبة قد تقف في الطريق، أو تسـعى لمنع خيوط الدماء الحارَّة من التدفق داخل شرايين المحبين.

ظلَّت الفجيعة تتَّخِذُ حجماً أكبر، رحتُ أتذكَّر الوقائع، أعيد ترتيبها، تمكنتُ من اسـتدعاء مسـاراتها، تدفقتْ مرة واحدة، حدثاً بعد آخر، رحتُ أستبعد بعض ما ورد في خطابات "منير" التـي وصلتْ لي في مواعيدَ متفرقـة، قبل أن تنتظم بعد عدة أشـهر، لتتخـذ موعداً لم تحِدْ عنـه، كان دائماً يقـع في بداية

الأسابيع الدراسية، ظللتُ وقتها أتَّجِهُ فور وصولي إلى الكلية، نحو اللوحة التي تتوسَّط ممرَّ البهو الطويل القريب من غرفة شؤون الطلبة ، في العاشرة صباحاً تقوم الإدارة بتعليق كشف بأسماء الذين وردت إليهم خطابات بالبريد، سرعان ما يغلق العامل غطاء لوحة الإعلانات الزجاجيّ ، لم يكن الأمرُ يستغرق سوى لحظاتٍ قليلة، أقفُ بعدها في طابور حاشِدٍ من الطلاب ينتظرون الخطابات من الأقارب والمعارف.

في حالتي، لم يكن هناك من أنتظر منه رسائلَ منتظمة غير "منير"، كنت أقرأ ما يصل لي بلهفة، وأعترف بيني ونفسي أن تلك المتابعة كانت تمنحني إحساساً بالمتعة، لا أدرك الآن وأنا في هذا العمر، سبباً لها، اللَّهُمَّ إلاَّ إذا كنتُ أنظر للأمر في ذلك الوقت ، على أنه قصة مسلسلة، أحتاج إليها لتسلية نفسي، في المكان الذي كان عليّ أن أقضيَ فيه أربعة أعوام كاملة للحصول على شهادة الجامعة.

مع بهجة الخطابات لم أكن أعوّل فيها إلاَّ على العلاقة التي ربطت بين "منير" و"هند"، بعد حصوله على شهادته بتقديرات مرتفعة، صدر قرار من الجامعة بتعيينه مُعيداً ، إنَّ هذا القرارَ كان منتظراً، ربما أكثر بكثير من انتظار نهاية سعيدة لقصة الحب، بعد أن ظلَّ يحصل على الامتياز في امتحانات نهاية السنة، وكان متوقعاً أن يواصل التقدم في السنة الأخيرة،

ظـلّ يُرجِعُ تفوقه كلّما تبادلنـا الحديث إلى "هند"، يقول أنَّ علاقتهما كانت دافعاً ، ظلَّ يستميتُ كي يُثبِتَ جدارته بامتلاك قلبها، وحين جاءت السنة الأخيرة، تُوِّجَ الجهدُ بوظيفة، فتحت أمامه بابـاً ليمُرَّ عبره، ويتقـدم طالباً يدَها، بعـد أن راودته فكرة الفشـل في الحصول على موقع في الكلية، سـيكون سبباً في ضياعها.

لم تَسِرْ الأمور في طريقها، على الرغم من صدور قرار التعيين، فحين جاء الوقت، كان عليه مفاتحة والده قبل التقدم لطلب يدهـا، تردَّد الأب، رأى أن خطوةً كتلك، لايزال أمامها الانتظام في العمـل، التهيؤ لبناء عش الزوجية، غـير أنه أمام هجمات لحُوحة شاركت فيها الأم والأخوة الكبار، لم يستمر في الممانعة لوقت أطول ، رضـخ الأب، اصطحب "منير" وعدداً من أفراد العائلة، واتجهوا إلى الإسماعيلية حيث تقطن عائلة "هند".

لم تكن المهمة سـهلة على الحاج "نصر" ولا على من كانوا بصحبته، لم يضع هؤلاء أقدامهم في السيارة التي انطلقت بهم إلى منطقـة القنال، إلاَّ بعد الحصول على تأكيداتٍ من "منير" بأنَّ الأمور تمَّ ترتيبها، وأن المطلوب منهم لن يتجاوز المشاركة في مراسـم قراءة الفاتحة، غيرَ أنَّ ما جرى، سبَّب حرجاً للحاج "نصر" ولمن تركوا أشـغالهم وانطلقوا معه، يقطعون مسـافة طريق استغرقته السيارة في أكثر من ست ساعات، كان الموقف

محرجاً لمنير، شعر بإهانة بالغة، حين تدخل رجل له ملامحُ جادة وصوتٌ خشن، كان يرتدي جلباباً بلا ياقة، وطاقيةً بيضاءَ تغطي جزءاً كبيراً من الرأس ، دون أن تخفي الشعر الأشيب القصير، كان هو عم "هند"، في البداية رحَّب بالضيوف، قبل أن يصمت قليلاً ، ثم يتحدث بلغة قاطعة:

- "ربما كان مجيئُكم إلينا موضعَ ترحيب، لكن عليكم أن تعلموا، أن "هنداً" ستتزوج من ابن عمها، وأن حفل الزفاف سيتم قبل انتهاء الصيف".

الصَّدمة طيَّرتْ صواب "منير"، تماسك بصعوبة، وكبح رغبة بالقفز وطعن بطن الرجل، شعر بدوار خفيف، من ذلك النوع الذي ينتج عن لطمة، وجهها كف فتوة على صفحة الوجه، تلعثم، حاول لملمة الكلمات التي انفرطت في حنجرته، أراد أن يكذّب ما سمعه، هو يعلم أن "هنداً" رفضت عرضاً سابقاً للزواج من ابن عمها، وأنَّ ما ذكره العم غيرُ صحيح، لا يوجد اتفاق بين الأهل حتى لحظة وصوله مع عائلته إلى الإسماعيلية، لكنه في اللحظة التي تهيأ فيها للرد، هبَّ الحاج "نصر" واقفاً، ومن ورائه مرافقوه، رأى "منير" وجه أبيه محتقناً بغيظ.

ارتجَّتْ الأرض تحت قدمي "منير"، واصل مساعيه للتماسك، استبعد أن تكون المعلومات التي وصلت إليه قبل

أن يتحرك مع العائلة إلى منطقة القنال مجرد خدعة، ما الذي سيدعو "هنداً" للتأكيد بأن الأمور مواتية ، إن كانتْ تعلم أنَّ اقترانهـا بابن العم بات محسـوماً ؟ شرارة من كهرباء أصابت جسد "منير" بارتعاشـة، توقفت حواسُّه عن التفكير، بعد أن وجد نفسه واقعاً في الفخ، كيف سيواجه أباه؟ وكيف سيحتمل عذاب الساعات التي سيقضيها معه في طريق العودة؟

الصدمـة المفزعة، لم تكن متوقعـة، ظنَّ أن الطريق كانت ممهـدة لمجـرد تعارف بين رجـال العائلة، من بعـده ينتهي انتظـار الأعـوام الأربعة، وتنفتح أبواب جنـة، احتملا خلالها مرور الشهور البطيء، كي يقطفا ثمارَها.

عاش "منير" أياماً من الأسى، كنت معه في معظم لحظاتها، أتابع ما يجري، أسـتمع وأقدم النصائح، وأنا أدرك الآن قسوة ذلك الوقت عليه، كلما استعدت مشاهد الأسي المرتسمة على وجه صديقي، فيما كانت العائلة تعيش صمتاً مطبقاً، يشـعر خلاله الحاج "نصر" أن حماقة ابنه، تسببت في إهانته، وأنزلت من المكانة التي ظل يحتلها وسط الأقارب، كان الرجل يجلس مذهـولاً، ابتعد عن الجميع، لا يصدق أنه على الرغم من كبر سـنه، ومن تجاربه في الحياة، انساق في النهاية إلى نَزَق صبيّ، هامَ بفتاة وقاد كبار رجال العائلة إلى إهانة.

بعد أن كان في قمة تألقه، قبل أسبوعين من ذلك التطور المربك، تساوى الإقبال على الحياة بجحيم الموت في ذهن "منير"، وبعد أن حقق الخطوة الأولى في مساعيه لترتيب أمور حياته: النجاح بتفوق، والحصول على وظيفة، ستقوده ليكون عضواً في هيئة تدريس نفس الكلية التي نثر في تربتها بذور الحب مع "هند"، ورعى النبتة إلى أن وصلت إلى وقت الإثمار، انتهى كل شيء، الحب الهائل الذي استنزف معظم الوقت، والأحلام التي لم تبرح الذاكرة في اليقظة والمنام.

في أوقات الحياة وتفاصيلها الصغيرة، كان وجه "هند" يطل أمامه، يحرضه على المضي في الطريق الذي يؤدى إلى بلوغ ما يأمله، ولكن، بعد أن جرى ما جرى، كيف يتصور أن الحياة يمكن أن تُعاش دون التي رهن عمره وأحلامه لها؟ من غير من لم تكن بالنسبة له مجرد فتاة سينتهى الأمر بزواجه منها، وتتوقف قصة جميلة شهدت فصولها أروقة الجامعة؟ كان يقين "منير" أن "هندَ" حالة يندر تواجدها مرتين، هي الحياة، الرحيق الذي يجعل الأيام أجمل، والأنفاس التي يلفح عبيرها جبهته، يتسلل إلى كيانه دفقة من الانتشاء لا شبيه لها، هى الابتسامة البديعة التي تضيء حين تلمع قسمات وجهها، فتنعكس عليه، حتى يصبحا معاً أكثر بهاء ورقة. هل بعد ذلك، يستطيع الاستسلام؟ هل يجب القبول بأن يقطف تلك الثمرة

رجل آخر ليســت تربطه معها علاقة كالتــي جمعتهما؟ هل لمجرد أن له صلة دم بها، يعني أن يترك له الأمر في يسر ويرضى بقــدره؟ وأي قدر ذلك الذي يســدل ســتار النهاية على قصة لعاشقين، ويجبرهما على تجاهل ذلك الألق الذي طوقهما؟

راح "منــير" وقتَها يســألني عن الحل، يتســاءل عما يمكن فعله، قبل أن يفرَّ ذلك الرحيق الذي ظلَّ يمده بأسباب الحياة مــن بين أصابعه. كان يدرك في كل الأحوال، أن الوســائل التي في يديــه قليلة، بعد أن باعدت المســافات بينــه وبينها، ليس بإمكانــه أن يفعل شــيئاً هــذه المرة، عليه قبــل كل شيء أن يســتعيد ثقة الأب، أن يثبت أنه ليس مجرد صبى يركض وراء نزق، يقدم الاعتذار له ولبقية العائلة، ويؤكد أنه استبعد فكرة الــزواج من الذهن، يتعهد أنه إذا عاد، ســوف يترك لهم الأمر ليقرروا ما يرتؤوه.

حالة مُطبقة من اليأس لم يكن يتصور أن يمُرَّ بها، وعليه أن يتعامل معها بجســارة، كان ذلك قاسياً، غيرَ أنه لم يكن أمامه بديــلٌ آخــر، الآن أتذكر أنني حذرته من الاســتمرار في تفكير كهذا، قد يحطم حياته، ويدخل سنوات عمره في جحيم، كنت أدرك وقتهــا، أن ذكرياته مع "هند" ســتظل تطارده، وتنغص عليه أوقاته، سواء بقى دون زواج، أو استسلم لضغوط الأهل في الارتباط بفتاة أخرى، لم يســبق أن مرَّت يوماً على خاطره،

غـير أني ظللـت أحـذره من السـير في تلك الهاويـة، لم يكن أمامي أي طريق آخر أسـتطيع عبره تقديم النصح لصديقي، كل الـدروب البديلة مغلقة، ولا طريـق غير الحياة التقليدية التي مرت بمعظم معارفي، العبور من طريق الزواج التقليدى، الـذي لا يجوز فيه للرجل أن يفكر في لمس ذراع من سـيكون مصيرُه مرتبطاً بها، إلا بعد عقد القِرَان، وإشهار الزواج في حفل يحضره أكبر عدد من الأهل والأصدقاء.

زواج تقليـدى بات هو النتيجة الوحيدة التي توصل إليها، بعد أربع سـنوات من قصة حب جارف، كانت أشـدَّ شـبهاً بقصص الحب العذرىّ التي شـهدتها صحراء بلاد العرب، بين عشـاق ومجانين، قادة وأغنياء، قطاع طرق وفرسان، تركوا كل مـا كان يحيـط بهم من مهابة، وانطلقـوا يهيمون في العراء ، ينسـاقون إلى مشيئة هاجس سريّ في أجسـادهم يوماً، وقام بسـحبهم من مآزرهم إلى حيث الهوى، بعـد أن أقنعهم بأن العشـق وحده نعيمٌ أبـديٌّ ، وأن الوصال مـع الحبيب، هو المبتغى لبني البشر.

اسـتكان قليلاً ، بعد أن ارتضى السير في طريق مغاير، لكن القلـب كان قلقـاً، إذ ليس من الممكـن أن تكون كل أحداث الأعـوام التي أينعت فيها الحكاية، حبَّاً وجمالاً وخيالاً ، مجرد هبـاء، ما إن تهب عاصفة حتـى تتمكن من محوها في لحظة

نزوة.

لم يكن القلب مسـتريحاً لتلك الخاتمة، غير أن العقل كانت له رؤيته، مثلما كان المنطق يدعو إلى خلق توازٍ في التعامل مع المسـألة، كانت هناك حسابات ينبغي أن يُراعَي فيها الحفاظُ على مشاعر عائلة مجروحة، وأن يتمكن الجريح من إزاحة ما علق في نفس أبيه والأعمام، بعد أن راحوا يتهمونه بالوقوع في مصيدة نصبت له بعناية، وأنه بسذاجة الصبيان ابتلع الطعم، وأقنعهم بالذهاب إلى هناك، حتى يتمَّ تلقينُهم درساً مؤلماً.

*****

الفصل الثالث

• " قلْ لمن تحب أنــك تحبه ، في اللحظة التي تشعر بسريانها داخلك ، قلها ولا تتردَّدْ ، فلا شيءَ في هذه الحياة ، أكثرُ إشراقاً من تلك الكلمة الساحرة ".

منـــذ زمن، لم يقل أحد أنه اســتطاع فك الأسرار المحيطة بذلك الشــعور الغامض، الذي يتسلل فجأة ويغمرنا، فننساق إليــه طائعين، ولم يقل أحد أنه قادر على اكتشــاف أسرار هذا الســحر، ولا مــن أي طريق يــأتي أو يروح، ولا جــاء بعدُ من استطاع كسر القشرة التي تغلفه بهذا الغموض الجليل والألق المراوغ.

البدايــات عادةً مَّا تكون قلقة، يشــوبها التردد في كثير من الأحيــان، يتقــدم المرء عبرهــا وئيداً، لكنه سرعــان ما يتراجع عشرات المرات، خطوة تتقدم بحذر، تتبعها أخرى متقهقرة، لا شيءَ في تلــك الخطوات مضمون، هذا الشــأن تعتريه كثير من علامات حيرة، ومخــاوف من العاقبة، لا عنــد البدايات التي تســتهل المشــوار بنظرة تعقبها ابتســامة، ولا أحد يضمن أن تكون تلك هي الأجمل من أي تمهيد للموعد، ولا حتى عندما يؤدي هذا الالتزام الصارم فيما بعد إلى اللقاء.

رباعية كثيراً ما كان لها مفعول الســحر في علاقة الحبيبين، هناك مــن تمكن من قطع أشــواط في تجربــة، وتحويلها إلى

فردوس، وآخرون انفرط عقدهم عندما لم يتمكنوا من السير في الطريق، فانهارت الأحلام، ولم تجد لها فرصة أخرى تلتقط فيها الأنفاس.

كيف يمكن للكائن الذي خاض غمار طريق زلق، وتحمل طويلاً للوصول إلى لحظات الحلم الأخيرة، أن يفرط فيه عند اكتماله، بعد ما نال السهد من عينيه، وعانى المخاوف والتردد، وعذابات الوجد؟ كيف له أن يستسلم، إن جاء من يزعم أنه الأحقّ ، ناثراً عبق السنوات وذكرياتها في الهواء؟ وكيف أمكن لمنير في لحظة عذاب، سادها الكثير من الارتباك، أن يركن إلى الهدوء، تاركاً الذئاب تفوز بغنيمتها، دون أن يهبّ مدافعاً عن حبه، وعن حق من أحب في رفض الاختيارات الأخرى، بعد أن منّى النفس بقرب الوصال.

لم تكن عندي قناعة بأن "منير" سيقدر مهما حاول ، على تبديل القرار الذي كانت عائلة "هند" اتخذته، أو إقناع عائلته بالوقوف معه في معركته، تمكنت الحيلة من إحباط أحلامه، ودقّ الإسفين في علاقته بعائلته، كانت الخطة محبوكة، وتم تنفيذها بحنكة، قام كل واحد من عائلة "هند" بلعب الدور المطلوب منه ببراعة محترفين، فيما ظل "منير" على حاله، نفس الفتى الحالم، الذي يهيم في عالم مثالي، ولا يزال كما هو يحفظ

كل أغـاني "عبد الحليم حافـظ"، ويمكن له أن يجيب على أي سؤال يدور حولها، في أي حفلة غنّاها؟ ومن قام بتلحينها ومن الـذي كتبها؟ من قام بالعزف وعلى أي آلة في كل أغنية شـدا بها على مسرح؟ كان "منير" يعيش أيامه، ويتعامل مع الناس، متقمِّصاً شـخصيته، يفـرح فكأنه هو، ويصيبـه البؤس فكأنَّ الأسى النابـع من "حليم" انتقل إلى قسَـمَات وجهه، ليكسـو معظم يومه، بينما كان يجلب السـعادة لنفسه، حين يلتبس رقته وحديثه الهامس للبطلة التي تتقاسم أحداث فيلمه.

لم أكن أرى في هذه الشـخصية الحالمة، أي قدرة على تغيير اتجـاه قضيته، وكنتُ على يقين مـن أن معجزة هى وحدها، التي يمكن تحويل مسار قدره بعد أن بات قريباً من التحقق، موت منافسه، أو حدوث فعل خارق، لم يكن يوماً في الحسبان.

أتذكر أني لم أكن وحدي من استسـلم، وجد "منير" نفسه تلك المرة أيضاً قليلَ الحيلة، بدرجة أكبر من أي وقت سـابق، استكان للحزن، وانتبذ مكاناً في غرفة قَصِيَّة من البيت، انزوى فيها حتى بات أشـبهَ بمن يعيـش في كهف، لا يخرج إلاَّ قليلاً، لا يـأكل أو يعنيه من هذا العالم أمر، حاول الأشـقاء إخراجه من تلك الحالة، لم يُفلِحُوا، وحين اسـتعانوا بي، لم تكن النتيجة أفضل.

اجتاحت كيانه حالة من عـدم الجدوى، زهد في الدنيا، لم يعـد هناك في نظره ما يبعث على البهجة، أغلق قلبه في وجه كل المساعي، وهي تحاول إخراجه من اليأس، وإيصال الدفء إلى الفـؤاد الحزين، منذ أن نطق عم "هنـد" بتلك الكلمات التي دفعت سواداً كئيباً أمام عينيه، وأعادته من هناك، مُحمَّلاً بأسى يكفي إن تم توزيعه على أرجاء الكون.

اسـتمرَّت تلك الحالة شـهوراً ، على الرغـم من محاولاتٍ رحتُ أبذلها كل يوم، استجابةً لدعوة الأهل، غير أني لما فشلت، اسـتنفرت الأسرة أفرادها، وتحامل الحاج "نصر" على نفسه، تحـت إلحاح الحاجـة "زينب"، ابتلع مشـاعر الغضب التي لازمته منذ العودة من الإسـماعيلية، واتَّجه إلى غرفة الحبس الاختيارية، راح يتحدث إلى ابنه مسـتدعياً بعض الود، أخفى أحاسـيس المرارة التي سكنت قلبه، طلب منه مغادرة المعتزل ومواجهة الحياة، لكـن ذلك لم يفلح مع "منير" الذي كان قد دخل في حالة من الاكتئاب لم يسـبق أن مرَّ بها أحدٌ من أفراد أسرتـه، كان عَصِيَّاً عـلى الأب التعامل مع ما يجري، بالطريقة التي يمكن بها إعادته لممارسة حياته.

ازدادت الحالة أسى، لم تعد تلك النظرات الموجهة من أفراد الأسرة، مصحوبةً بمزيد من الشـفقة، تعني أمراً لافتاً له، اعتاد

"منـير" عليها، ولم يعد يرى فيها إلا علاماتٍ مفتعلة تبدو على الوجه، بينما تخفي القلوب غضباً، مُساوياً للشعور بالمهانة.

وكأن ما يجرى في أفلام السـينما، يشـكل تفاصيل الوقائع المعاشـة، فإن "منـير" سرعان، مـا اتجه جسـدُه إلى الهزال، الوجـه الـذي كان ورديا ولامعاً كأنه من بلّـور، راح في هدوء يضمحل، ويكتسي الـوردىّ فيه بقتامة، والعينان المتسـعتان بلونهما الخليـط بين خضرة فاتحة واسـوداد، أخذتا تضيقان بين يوم ويوم، ترك الشـاب العاشـق نفسـه، ملابسه، لحيته، الأظافر النامية في أطراف أصابعه، تكاسـل وإهمال وشـعور بعـدم الجدوى، وافتقاد للدافع الذي كان يحفزه على الاعتناء بنفسـه، انتهى ذلك، وبات الضجر والتراخـي، وانتظار مرور الأيام دون مبالاة، لا يهم ما مضى منها، ولا ما سوف يأتي، باتت كل الأشـياء سواء، افتقد الهمة التي كان الحب في وقت سابق يدفعه إليها، تراخى فتحوَّل الجسـد إلى قطعة هشَّة من جلد يكسـو هيكلاً ، يرتكن محبطاً، إلى جوار جدار غرفة، تسـكن فيها الحياة، ويختبىء الجحيم.

في البداية، كان الحبُّ دافعاً، وحين انهارت الأحلام، تساوَى العـدم بالحياة، وتحول الفتـى الذي كان مبالغـاً في الاعتناء بنفسـه، ميَّالاً للتأنق، إلى شـخص آخر، من ذلك النوع الذي

افتقد الأجمل والمثير، وبات منذ عودته من الإسماعيلية، خائبَ الرجاء، يعيش بلا معنى.

غريبٌ أمر ذلك الكائن الذي نكونُه، وعجيبٌ ما يفعله الحب في البشر عندما يجتاحهم، يطير مثل العصافير في الفضاء، إن داعبت أذنيه كلمة رقيقة، يبني عوالم من الجمال، سماءً من السعادة، يحيط نفسه بفرح عاصف، ينتزع كيانه من العالم المحيط، ويؤسس عِشاً من البهجة، يتقافز فيه مع محبوبه ويرفرفان، غير أنه عند أول عثرة، سرعان ما يلفه الإحباط، يسقط من عليائه، ويهوى صريعاً عند أول اصطدام، تنغلق الدنيا على اتساعها في عينيه، ويتغطي سقف العالم بغمامة، تضيق الحياة، وتتحول لديه إلى مأزق، لا حلَّ للخروج منه إلا بمغادرة الدنيا.

كان "منير" واحداً من تلك الكائنات التي لا تؤمن بالحلول الوسط، إما الانطلاق نحو الحياة ومعانقتها والعيش على وقع أغاريد الطيور، أو الوداع الأخير دون أسف، هذه الحال التي واصل المضي فيها، دون أن يدرى أنها في النهاية سوف تقوده إلى نفق غائر من اليأس، لن يتمكن من الخروج منه إلا بمفاجأة لم تمر يوماً على باله.

دون أن يكون هناك ما يلوح في الأفق، ويشـير إلى انفراج، دقَّ جـرسُ باب المنزل، في البداية جاء الصوت على اسـتحياء، غيرَ أنه لما طال التأخر عن الاسـتجابة، عاد الرنينُ أكثرَ إلحاحاً، اندفع "سمير" شقيقه الأكبر، وحين بانت الرؤية على اتساعها، رأى في مواجهتـه الحـاج "نبيل" ومن خلفـه ثلاثة مرافقين، صعدت علامات الدهشـة على الفور، امتلأت قسـمات وجه "سـمير" بها، ولعله حـين كان يتذكر تلك الوقعـة، يقول أنَّ السيناريو الذي دار وقتها في ذهنه كان يشير إلى أنَّ شراً سوف يحل، وقتها اختفت العبـارات وهو يرى الضيوف وقد وقفوا عند باب البيت.

اختار الرجل أن يجيء دون موعد، قطع المسافة من مدينته إلى البلدة الكائنة على شاطىء البحر المتوسط في عمق الدلتا، لم يكـن الطريق منهـا طيِّعاً ، ثمة التفافـات خطرة، حفريَّات تتواصل في عمق التربـة، ومطبَّات تئِنُّ منها المركبات، ولعنات يصبها السـائق، الـذي ما إن ينجو من حفـرة، حتى تصادفه الأكثر خطورة.

حـين انفتـح البـاب، رأى الذهـول يفترش مسـاحة وجه "سمير"، بادَرَه:

- "ألا تسمحون لضيوفكم بالدخول؟ ".

ابتسم وهو يمد يده:

- "نحن في حاجة إلى التقاط الأنفاس بعد مشـوار كان أكثر صعوبة مما توقعنا؟" .

بعدها حدثني "سـمير" أنه تلعثم، شـعر ببعض الكلمات انحشرت في حلقومه، قبل أن يسـتعيد بعـض توازنه، فيخلي لهم طريق الردهة الذي يؤدي مباشرة إلى غرفة الضيوف، كان عليهم أن يقطعوا الممرَّ الضيِّق الذي يقتسـم حجرات المنزل، وحين اتخذوا أماكنهم، انطلق لينادي والده الحاج "نصر"، من محله القريب.

بدايـات الود، دائماً ما تـؤدى إلى نهايات مريحة، كان هذا ماشعر به الحاج "نصر" هذه المرة من كلمات الحاج "نبيل"، الـذي كان يبدو أنـه انتقاهـا بعناية، والحق يقـال وفق ما سـمعته، فـإن الرجل في المرة الأولى حـين ذهب إلى منزله كي يخطب ابنته,لم يجد في كلامه ما يسيء، فمن تحدث بخشونة، ومـن أعلن لهم أن "هند" مخطوبة لابن عمها، كان شـقيقه الأكبر، الحاج "حسين" والد العريس الذي أراد الاقتران بها، من هذه الناحية لم يكن لدى الحاج "نصر" ما يأخذه إلا السـلبية

التي دفعته للصمت خلال حديث شقيقه، وهو يعلن بطريقة غير مباشرة رفض تلك العائلة اقتران "منير" بابنتهم.

ما علينا، قـال الحاج "نبيل"، ليباعـد في تلك اللحظة، أي شـعور بالعتب، الحاج "نصر" أيضاً بـدا مرتاحاً، مادام الرجل تكبّد مشـقة الطريق، وجاء إلى بلدة لم يسبق أن زارها، خاض في أرضها وراح يسأل عن بيت الحاج "نصر الدين المنشاوى"، أليس هذا كافياً ليزيل الحاج أي عتب من خزانة ذاكرته؟

حين لم يجده إلى جوار والده، سأل عن "منير"، عاد الارتباك، اسـتدرك الحاج "نـصر" الأمر، قال أن "منـير" يعاني من نزلة برد حادة، وأن الطبيب نصحه بعدم الخروج من سريره، منعاً لانتقـال العدوى، غيرَ أنَّ الحيلةلم تنطـلِ على الحاج "نبيل"، قال وهو يضغط على الحرف الأخير من كل كلمة كان ينطقها:

- "لم أتكبَّـد هذا السـفر الطويل، إلا لأسـلم على منير وأبلغه بضعَ كلمات، ينبغي أن يسمعها بنفسه".

توقَّـفَ الرجل للحظات ، عاد بعدهـا ليؤكد على أن لديه استعداداً للانتظار لوقت حتى يحضر "منير".

أُسـقِطَ في يد الحاج "نصر"، أشـار على "سمير"، بالذهاب

وإحضار شـقيقه,لم يكن الذيـن تواجـدوا في غرفة الضيوف من أشـقاء "منير"، على علم بما يمكن أن يحدث في اللحظات القادمـة، بعضُهم كان يتوقـع أن يكون دافعُ تلك الزيارة أمراً سعيداً ، فيما توجَّس آخرون من أن تسير الأمور نحو مزيد من التعقيد، كان من بينهم "سمير"، يرى أنه ليس هناك ما يمكن خسـارته أشـد فداحة مما حدث، فإن كان هناك ما يُسـعد، فأهـلاً به، وإنْ تأتى الأمور بأخبار سـارَّة، فـإنَّ أمراً مخيفاً لن يجلب إلى القلب همَّاً إضافياً.

حين دخل "منير" متسـانداً على كتف شـقيقه، كان باديَ الضعف إلى درجةٍ أدهشـت الضيـوف، لم يكن لرجل في مثل عمـر الحاج "نبيل"، أن يأخذ على محمـل الجد ما يقال عن العشق، وعن المصائر التي يتحول إليها العشاق، كلما ازدادت بهم لوعة الشوق وتباريح الوجد، ولم يكن له وهو ابن مدينة تقع على واحد من أهم ممرَّات الملاحة في العالم، حيثُ السفن التي تعبر، ويتوقف ربابنتها فيها، إلاَّ أن تكون له نظرة مغايرة، غـير تلك التي يحملها أبناء بلاد لها طابع الريف وتختلط فيها قصص الـرواة والمصاحبة لنغمات الربابـة، أو مواويل حكَّائي الروايات الشـعبية في موالد الأوليـاء الصالحين، كانت للرجل طريقـة أخرى في التعامل مع الأمـور، لكنه حين دخل "منير"

مسـنوداً وهزيلاً ، بدتْ الدهشة على الرجل ، وقف مذهولاً، ثم مدَّ يديه وأمسـك بذراع "منير"، وجهه إلى المقعد المجاور، كانت تلك إشارة إلى أن الأمور تسير على طريق ممهد، داعبت هـذه الفكرة خيال كل الذين كانوا يتابعون ما يجري، انتظروا ما يمكن أن تسـفر عنه تلك البداية، لكن الشعور بالسكينةلم يسـتقر في الأفئـدة، إلا حين قال الحـاج "نبيل" في وضوح أن ماحدث في الإسـماعيلية، كان سحابة صيف، وحان الآن وقت ابتعادها.

صمت قليلاً ثم عاد ليقول، أن ما جرى من شقيقه، لم يكن متفقاً عليه، ولم يتم بترتيب مسـبق، أكد أنه شخصيًّاً فوجيء به، غيرَ أنه لم يُرِدْ أن يُسفِّه كلام الأخ الأكبر، ولم يكن يتصور أن ما جرى، قد يؤلم مشاعر "منير" وأسرته إلى هذا الحد.

إلى هنا سـارت الأمـور بطريقة تبعث الارتيـاح، وغلفت علامات السـكينة المكان، وحين واصل الحـاج "نبيل" الكلام، كانت ملامح الأسي على وجه "منير" تختفي، واندفعت الدماء بألوانها الوردية تحت الجلد، تحفز كيانه الواهي، في انتظار ما يمكن أن تسفر عنه آخر عبارات الرجل.

قـال الحـاج "نبيل"، من بين مـا قال، وفقاً لمـا أخبرني به

"منير" وقتها، أنه جاء إلى منزل الحاج "نصر"، كي يفتح صفحة جديدة، طالباً نسيانَ ما كان، وماداً يدَه إلى والد "منير"، لقراءة الفاتحة والاتفاق على تفاصيل مراسم الزواج، على بركة الله وسنة رسوله.

قال "منير"، أنَّ الدماء تدفقت في كيانه، والهزال الذي أقعده، اختفي فجأة، جميع من كانوا قد حضروا تلك الواقعة، ظنوا أن جناحين انتظم الريش فوقهما مزركشاً وجميلاً، حملا "منير" في أرجاء الغرفة، وراحا يحلقان به، قبل أن يهبطا على الأرض، فيعانق بهما الرجل الذي جاء من مشواره البعيد، ليهديه جرعة إضافية من الحياة.

أمسك الحاج "نبيل" بذراع "منير"، قال:

- "ما سيجرى لن يمرَّ بهدوء، أخي لن يغفر، تزويجها من غير ابن عمها، ذلك يعني أن تضع "هند" في عينيك، أن تكون على قدر تلك التضحية، هل تعلم معنى أن تخسر "هند" عمَّها كي تشتريك؟" .

***

مـا لم يقله الحاج "نبيل"، يتعلق برد "هند"، مع أنه يعلم أن أحد أسـباب إصابة "منير" بالاكتئاب، ونزوعه إلى الانعزال التام حبيسـاً في غرفة مهجـورة، كان يعود إلى اعتقاده في أنها راحت تستسـلم لرغبة أهلها، أو اتخـذتْ في معظم الأحوال موقفَ اللامبالاة .

لكـن "هند" هى التي قلَّبت الموقف، وهى التي لم تسر في الطريق الذي مضى فيه "منير"، لم تستسـلم للهجمة المباغتة التي شـنَّها عمُّها على من جاؤوا إلى المنزل، ولم تكتفِ بالبكاء، هـذا ما علمته أنا، وتأكدت مـن حدوثه، فيما بعدُ منها ومن "منـير"، في عديد من المـرات التقيتهما، بعـد حفل العرس، ولعل هذا هو السـبب الذي جعل الدم يفور في عروقي، حين شـاهدت امرأة ليسـت لها ملامح "هند"، تستقبل "منير" في صالة مطار تورونتو.

فاجأتها الدهشـة التي ارتسـمت على وجه أبيها، أدركت هي وأمها أن السـعادة المنتظرة، انقلبت في لحظة واحدة إلى أسى، كانـت الصدمة بالغة، لمن كانت تدرك أن والدها أبلغها من قبلُ موافقته على حضور أهل العريس، سـمع عن "منير" وعن مسـتقبله الوظيفىّ ، ولم تكـن هناك عوائقُ تحول دون

إكمال البهجة، بعد أن يبارك والدا العروسان الاقتران بقراءة الفاتحة.

كان الأمر مفاجئاً، شعرت بصاعقة مباغتة تهبط بقسوة وتقبض على روحها، بعد مرور عدد من الأيام، استوعبت الصدمة، وحين أفاقت، اتجهت إلى أمها، دعتها للوقوف إلى جانبها، في مسعاها لإحباط ما خطط له العم، كانت الأم حائرة بين سعادة لا تريد حرمان ابنتها منها، وقطيعة مؤكدة سوف تحدث بين الأخ وأخيه، وتكون نتيجتها مدمرة على علاقة ظلت حميمية بين الشقيقين. تدرك أن الأمرَّ لن يمر بسلام، كانت تحمل في قلبها مرارة، وعلى الرغم من غضبها لاندفاع شقيق الزوج لطرد عريس ابنة أخيه، دون أن يكون في أي وقت سابق قد تحدث عن رغبته في اقتران ابنه و"هند"، لكنها خشيت من جرح مشاعر زوجها بغضبها، اعتبرته "هند" موقفاً سلبياً من الأم، اتخذت هي قرارَها بالدفاع عن اختيارها مهما كان الثمن، تساوَى الحبُّ لديها بالحياة، وكان عليها في تلك اللحظة الفارقة أن تقطع مشواراً، بينما يجد الأب نفسه، واقعاً بين متناقضين، اكتفى بالصمت، وهو يدرك أن قلب ابنته تحطم، وتناثرت حبَّاته كهشيم زجاج في الهواء.

اســتجابت الأم لإلحاح "هند"، رغــم الحرج الذي وجدت نفسها فيه، راحت تتحدث مع الأب، الذي كان ، يرى أن اتخاذ قرار يخالف ما قرره شــقيقه الأكبر، كان أكبر من طاقته، على الرغــم من تعاطفه مع الابنة,لم يجد أن هناك ما يدعو لتدمير علاقة عائلية، ترســخت على مدى ســنوات، اتفق مع زوجته على نسيان الموضوع، والسعي لإقناع "هند" بتجاوز ما جرى، وانتظار الوقت الذي ســيتقدم فيــه عمُّها ليطلب يدها، وهو أمرٌ بات الأب واثقاً من أنه ســوف يتــم في وقت قريب، منذ تلك اللحظة، تغيَّر خطاب الأم مع ابنتها، تحولت أم هند مائة وثمانــين درجة، مــن التعاطف الكامل مع عاطفــة ابنتها، إلى عباراتٍ أخــرى مغايرة، كثيراً ما تقودها لسرْد قصص لا تنتهي عن علاقــات أسرية، بدأت بعد الزواج، ودون أن يكون الزوج والزوجة قد شــاهدا بعضهما قبل عقــد القران، والتأكيد على مــا أصبح عليه مثــل هذا الزواج من اســتقرار حقيقيّ، حتى نهايــة العمــر، ضربت لها أمثلــة، ظلت تلــحُّ في التأكيد على الفكــرة، تؤكد أن الأحاســيس التي تختلــج في قلوب الفتيات خلال الدراسة، أو على مدى الفترة التي تنضج فيها أجسادهن، ويتحوَّلنَ فيها من الطفولة إلى المراهقة، ليست سوى عواطفَ بدائيةٍ، تمنح الفتاة شــعوراً بأنها وضعت أقدامها على مرحلة

الأنوثة، وتختبر فيها مدى التغييرات التي ألَمَّت بها، في النهاية هي ليست إلا ذكرياتٌ جميلة، قد تصاحب الفتاة في السنوات التاليــة، وتمنحها الثقة في أنها ظلَّت محطَّ إعجاب الآخر، لكن لا ينبغــي أن يتضخَّم الأمرُ في رأســها، وتظن أن تجربةً كتلك، يجب استمرارها، وأن تتوقف أحداث العالم عند لحظتها.

قالــتْ تلــك العبارات كثــيراً ، راحت ترددهــا في كل مرة بتنويعــات مختلفة، كي تجدد في مفاصلها الدماء، لكن "هند" التي ســيطرت على رأســها فكرة واحدة، ليست تقبل بغيرها بديلاً، ظلَّتْ تتظاهر بالاســتماع، دون أن يكون الذهن صافياً، كان هناك ما يلح عليها، ما يجعل عقلها الباطن يطرد أي فكرة مغايرة لما استقر فيه، كانت صورة "منير" تغشاها، لا تتركها في أي من لحظات اليوم، حتى ساعات الحلم، كانت مخصصة له، في كل يوم يأتي إليها في ساعاتها التي تمدد جسدها على السرير، استجابة لتعب، أو لإرهاق أجهدت خلاله ذهنها، وهي تبحث عن طريقة للخروج من المــأزق، كان يرتدي في كل مرة ثياب العريس، البدلة السوداء اللامعة، ربطة العنق ذات الشريطين المتلاصقين، القميص الأبيض الذي تطل من بين خيوط نسيجه، ابتســاماتٌ ليست لها نهاية، بينما تتأبَّط هي ذراعَه، ويمشيان في طريــق طويل، لا تبدو على مدى النظر له نهاية، يبدأ بزفَّةٍ

سكندريَّة، ولا تنتهى أفراحه، إلا بوصول العروسين إلى عشهما الذي ظلت الحوريات تحيط به في الأحلام، وكل واحدة منهن تمسك بزهرة توليب حمراء.

حين شعرت "هند" بتبدل موقف أمها، أدركت أنها تخوض معركتها منفردة، كانت تستمع إلى نصائحها وهي على يقين من أنها جاءت بتعليمات من الأب، أغلقتْ باب غرفتها، لم تعد تتحدث مع أحد بعد أن كانت أمُّها مخزناً لأسرارها، خلال السنوات الأربع.

أصاب الانقلابُ المفاجىء "هند" بالإحباط، شعرتْ أن الأمور بدأت تفِرُّ من بين أصابعها، قررت عدم الاستسلام، ومواجهة الأمر بنفسها، وهي على يقين من أن تلك سوف تكون معركتها الأخيرة وعليها أن تستخدم ما يتبقى أمامها من المناورة بذكاء، لم يعد أمامها غيرُ الدفاع عن الحق في تحديد المصير، واختيار من ينبغي قضاء بقية حياتها معه.

ذات يوم، اتَّخذتْ قرارها، غادرت باب المنزل، وهي تدرك أن ما ستُقدم عليه، لن يكون غيرَ مجازفةٍ إن خسرتها، ضاعتْ أحلامُها، انطلقت إلى منزل عمها، حين رآها بدتْ علامات الدهشة على وجهه، كان يتوسط صالة المنزل، يستند بمرفقه

إلى وسادة مربعة صلبة، وأمامه شيشة لها أنبوب طويل، يشُدُّ منه أنفاساً متتابعة، ثم يطلق سحابةً من الدخان الأبيض من منخاريه في التذاذ، كانت تملك شخصيةً جسُورةً، وجمالاً أخَّاذاً حين وقفت في مواجهة عمها، أشار الرجل لها بالجلوس، راحت مكانها، تحدثت في البداية تختار عباراتٍ هادئة.

قدوم "هند" لم يمر في ذهن الرجل على أنَّها واحدة من زيارات يتبادلها أفراد العائلة، أخبره حَدْسُه أنَّ هناك أمراً مَّا يكمُن في هذا المجيء المفاجيء، بادَرَها:

- "هل هناك أمرٌ مهمٌ جاء بك الآن؟" .

شعرت "هند" بالدهشة، لكنَّها لم ترَ هناك مايدعو إلى إضاعة الوقت، هزَّتْ رأسها، تلعثمت قليلاً ، قبل أن ترد:

- "هناك ما جئتُ لأقوله، وأطمع في أن يسمعني العم".

كانت تتكلم، وهى تتلفَّتُ في بطءٍ بين اليسار واليمين، بينما وقفت زوجة العم وعددٌ من الأبناء، يحيطون برب العائلة من بعيد، فهم الرجل، قام من مكانه، واتجه إلى غرفة الضيوف، سارَ على مهل فتبعته، دخل وهى خلفه، وأغلق الباب، كان على "هند" أن تنتهز الفرصة، وتباغت دون إضاعة وقت:

- "أرجو أن تُقدِّرَ ما سأقوله، لا أشعُر تجاه ابن عمي إلا بأخوة".

ظـلَّ هذا المدخـل المراوغ، يفلح في حـالات كثيرة على مر التاريخ، انطلقت من بعده مراسيم الزواج، لكنَّه أيضاً لم يُفلح في إقناع الأهل الذين يحملون في رؤوسـهم عقولاً متصلبة في حالاتٍ أخـرى، فالزواج في نظرهم هو الـزواج، من بين أفراد العائلة، أو من فرد غريب، نفس الطقوس، البدايات والنهايات، أما الأرواح المؤتلفة أو المختلفة، وأما العشق والهوى، فلم تكن في نظر هؤلاء سـوى أوهامٍ تنحشر في عقول الفتيات صغيرات السن.

تلك البداية لم تكن مُجدية، رغم الجهد الذي بذلته "هند"، لإقنـاع العم، رأى أن مثـل هذا الكلام يصلـح في أفلام لفاتن حمامة، أو ليلى مراد.

الرجل الـذي فاجأته جرأة الفتاة، لم يتخـذ موقفاً متعنتاً، لم يندفع ولا تحول الدم إلى جمرات تحرق عروقه، اسـتوعب الأمر، وقرر الاستماع لابنة أخيه، حتى يرى ما سيسفر عنه الأمر في نهاية المشـوار، تركها تتحـدث دون أن يتدخل لمرة واحدة بمقاطعـة، عندما وصلتْ إلى لحظةٍ قالتْ فيها أنَّ إرغامها على

الزواج من ابنه سيدفعُها إلى الإقدام على الانتحار، عند هذه الكلمة احمرَّ وجهُه، انتفض واقفاً، شعر أن الأمر وصل إلى الحد الذي يقترب من الإهانة، ابنة أخيه تفضل الموت على الاقتران بابنه، بعد أن ظلَّ يؤجل مفاتحة أخيه بنيته، إلى الوقت الذي سيراه مناسباً، كان يعلم أنَّ من المناسب الانتظار حتى ينتظم الابن الذي انتهى لتوِّه من دراسته الجامعية، في وظيفةٍ تساعده على فتح بيت الزوجية.

كسر قشرة الانتظار، حين اندفع في اللحظة التي شعر فيها أن الفتاة سوف تطير إلى عش غير الذي رسمه لها، اعتدل ساعتها، وردَّ على طلب الحاج "نصر"، متجاهلاً علاماتِ الارتياح التي كانت باديةً على وجه أخيه، وقال أنَّ "هند" مخطوبة لابن عمها.

ابتلع الحاج "حسين" ريقه حين استمع لكلام "هند"، بذل جُهداً ليستعيد هدوءه، كان يشعر بحب نحوها من بين أولاد أخيه، وظلَّتْ شقاوتها في الصغر تثير بهجته، يدرك أنها لم تستكن في أي وقت، تطالب بحقوقها، إذا ماحاول أحد أقرانها اقتناصها، كانت تتمتَّع بخفة الدم التي يبتهج لها كبار السن من رجال العائلة، فيتغاضون عن بعض التجاوز، من هنا

جاءت جرأتها في الذهاب، والحديث عن موت سيكون أفضل لها من الزوج. لم يستطع إخفاء الغضب، هذه المرة، تجاهل مكانتها لديه، أبلغها أن ما قالته غيرُ مقبول، أضافَ في صرامة:

- "لا يليقُ بفتاةٍ مثلك أن تحدد لأهلها، ما الذي يجبُ عليهم فعله".

لم تشعر بخوف، جاءت إليه عازمة على عدم القبول بأى حل، غير انتزاع الموافقة على ارتباطها بمنير، لم يكن لديها نيةٌ للمهادنة في مصيرها، حتى وإن قام العم ورفع كفّاً وهبط به على وجهها، لم يفعل، لكنه حين تماسك، وجّه سيلاً من عبارات التوبيخ لها، اختتم كلامه بتهديد واضح، إن عادت في أي يوم لتتحدى إرادة الأهل، قال أن التقاليد لا تجيز للبنات، مخالفة ما استقرَّت عليه إرادة عائلة، يعرف كبارها، لا هي ولا من في مثل عمرها، أين تكمن مصلحتها.

غادرت "هند" المنزل، عششت هموم الدنيا فوق رأسها، رأتْ أن الطريق الذي ذهبت إليه، وهي مصممة على مواجهة المشكلة، وعدم الهروب من أمامها، بات مغلقاً، تاهتْ عن المسار الذي جاءت منه، كان رأسُها يحتشد بأفكار متضاربة، اسوَّدتْ الدنيا في عينيها، واجتاحتها غلالة معتمة، ها هو

الحُلـم يصل إلى منتهـاه، يصطدم بالجدار المسـدود، لم تعد تنفع لاختراقه، إلا الصدفة المسـتحيلة، وحين وصلت إلى منزل العائلة، اسـتقبلتها الأم بعتاب صارخ، خرج الأب من دهشته مغتاظـاً، لم يسـبق أن رأتـه في مثل هذه الحـال، قبض على ذراعها، وألقى بها في عنف وسط الغرفة، وقف يصرخ، يتهمها بتحديه، والخروج عن الطاعة .

لاذتْ بالصمـت، حتى اسـتنزف الأب والأم رصيد الغضب الـذي تبقى في حنجرتيهـما، تركت الأمور تمضي في مسـارها، فعلـت مثلما يفعـل الأبناء حين يتركـون صراخ الآباء يندفع، يعلـو، ويصطخب، يفـور ويجتاح ما أمامـه كالأعاصير، حتى تنتهي الكلمات الغاضبة وتأتي السكينة، حينئذ، لا يكون هناك سـوى اللجوء إلى لحظات من الهدوء تمهد الطريق لمناقشـة الأمر.

قالـت "هند" وهـي تحكي لي عن تلك الواقعـة، أن اليوم التالي شـهد حالة غضب جديدة، وتكرر الأمر في اليوم الثالث، ثم كانت المقاطعة طيلة الأسـبوع التـالي، إلى أن بادرت هي بهدوء، وتحدثت إلى أمها، ولمّا لم تجد اسـتجابة، عادتْ لتلوح لهما بحكاية الانتحار.

شـعرا بالخطر، لم يكن الأمرُ مُجـرَّدَ تهديد صبيانيّ ، لجسِّ النبض، اجتاح الأمَّ فزعٌ مزلزل، ودقَّتْ أجراس الخطر في ذهن الأب، لمراجعة نفسـها، قامت بنقل مخاوفها للزوج، تحسَّـس بدوره درجة الجنون، فاستسلم جسدُه لموجة رعب.

رغم ذلك، لم يستسلم الوالدان، ولم يبلغ العمُّ أخاه بما جرى مـن "هند"، وحين هدأتْ قليلاً ثـورة الأبوين، راحتْ "هند" تقُصُّ عليهما ما جرى مع عمها، ضاعف الأمر من حرج الحاج "نبيل"، رفع مجدداً درجة الغضب من ابنته.

مع الغضب والصراخ، اسـتطاعت "هند" كسـب المعركة، خـسر أبوها أخاه، وانزوتْ الأم في أحد جوانب الغرفة، وارتفع ضغطهـا، تعاطفت مع زوجها، بعد مـا أدركت حجم المهانة التي سـبَّبها عنادها للأب وسط العائلة، لكنه لمَّا لم يكنْ بيدها فعل أي شيء من شأنه تغييرُ ذلك التشبث، بعد طول معاندة راحـت الأم تفكر،لم يكن لديها النية للتفريط في ابنتها، وتركِها تتـزوج ممن لا يروق قلبُهـا له، عليها أن تنقذ ما تسـتطيع، توصلت إلى النتيجة، فاتحتْ زوجها من منظور مختلف، ماذا لو لم نقفُ في طريق سعادة ابنتنا؟ ماذا لو تركناها تتزوج ممَّنْ أراده قلبها؟ أليس أفضل من إجبارها، ألسـنا يا حاج نبتغي في

النهاية سعادتها؟ فلماذا نعاند ونباعد بينها والسعادة؟ لنفكرْ في الأمر بطريقة أخرى، أن تحسبها بالعقل، إن فعلت، ستجد أنَّ من الخير لابنتك التي تحبها، يكمُن في الزواج ممن تعلقت به.

ما كان الأمر ليمُرَّ بيُسر لدى الحاج "نبيل"، حتى وإن استدعى الحكمة، أعاد التفكير في الأمر، إقرار حق الفتاة من الزواج بمنير، سيكون معناه فك الارتباط بأخيه، وإعطاء مبرر للبعض للتحدث بسخرية عنه، على اعتبار أنه من بين هؤلاء الذين يبيعون عائلتهم من أجل غرباء، لن تتركه ألسنة البشر اللاذعة حين تتداول أن ابنته فرضتْ عليه ما أرادت، وأنه رضخ في النهاية، وقبل بما لا يليق بالآباء.

رفض نصيحة الزوجة عشرات المرات، قبل أن يستسلم ويبتلع الحنظل، قرر أن يشترى خاطر ابنته، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، قام باصطحاب اثنين من أبنائه الذكور، لمرافقته في السفر الطويل من وإلى النهاية الساحلية للدلتا، هذه المرة سيكون الدافع، إعادة المياه إلى مجاريها، ورَتْقِ الشجِّ الذي أحدثته كلمات الحاج "حسين"، لمنع اقتران منير بهند.

كان الأمرُ ثقيلاً على الحاج "نبيل"، لكنَّه لم يشأ تركَ الابنة

لموتٍ قررت أن تذهب إليه طواعيةً ، حتى لا تجدَ نفسَها يوماً في عش واحد مع شخص غير الذي رسمتْ حياتها معه.

*****

الفصل الرابع

• " الفـراش الوثـير وحـده لا يدفـع إلى الشـعور بالراحـة ، فالقلب هو الـذي يُدثِّرُها ويقدمها لنا زاهية " .

اتسعت طاقة الدنيا، باتت مفتوحة على جميع الجهات, ومع تلك الرحابة لم تعد تكفي الفرح الذي عانق "هند"، بعد ما تمكنت من تحقيق انتصار كبير حاسم، ضد الظروف التي وقفت عائقاً أمام حلمها، فتحت الآن الذراعين على آخرهما، وراحت تحتضن السعادة البازغة، كانت "هند" في النهاية تحصد ثمار ما ظلت تمهد الأرض لإيناعه، وكان "منير" قد وصل في واحدة من أشد أوقات حياته ألماً، إلى ذروة اليأس، غائباً في ذهوله، لأنه لم يمر بخياله احتمال أن يبزغ بارق للأمل في أي لحظة، بعد ما أصابته الكلمات التي قالها عم هند في حضرة أفراد من العائلتين بالإحباط، أدرك "منير" الذي استسلم للحزن، وقرر الابتعاد عن الدنيا، أنَّ "هنداً" هي التي دافعتْ بعنادٍ عن حبها، استبسلتْ لتصنع من خيوط الحب التي غزلاها جديلة سعادة طويلة، لا يستطيع الزمن فكَّها.

كان الكلام الذي سمعتُه من "منير" وهو يقص لي تفاصيل وقائع المفاجأة المفرحة، يمتزج بامتنانٍ لشجاعة "هند"، ونجاحها في إعادة دم الحياة للتدفق في الشرايين، كان يدرك أن اختياره الانعزال، لمعاقبة نفسه، والرضوخ للاستسلام، لم يكن

قـراراً صائباً ، راح يكرر على مسـامعي أنه لولا إقدام "هند"، وخطواتهـا الجريئة، ماكانت تلك النهاية الكئيبة قد شـهدتْ انفراجـة، وحملت السـعادة إلى دار أهله، في لحظة لم يتوقَّعْ خيالُه حدوثَها.

بدأت الأمور تسـير وفـقَ المنطق الطبيعيّ، غـيرَ أنَّ الذي حـدث لم يمضِ في الطريـق الذي يوازيه، سـارت الدنيا بي في اتجاه مختلف، بعد أن شـاركت في حفـل زفاف "منير"، بعد أشهر، كنتُ على موعد مع وظيفة، أخذتني إلى عدد من المهام، رحتُ أنتقل عبرَها بين العديد من دول العالم، في البداية كنتُ حريصاً على متابعة أحواله، غيرَ أنه بمرور السـنوات، وغربتي التـي طالتْ عن مصر، راحت الأسـئلة تتناقص، وراح الحرص على متابعة أمور الأصدقاء يخفُت، كأنَّ القصة انتهت، وسارتْ الأمور في درْبٍ لا تتواجد فيه غيرُ طيور الجنة وحورياتها.

انتهت القصة على غير ما تنتهي قصص العاشـقين ، الذين يحصدون المآسي، وتسـتدِرُّ الملاحم والمواويـل الدموع للبكاء على أحوالهم، وتدور القصص الشعبية حول خيبات آمال، تأتي في النهايـة على عكس المتوقع، وهذا ما جرى في حالة "منير"، تحـول العش الـذي تمَّ بنـاؤه حجراً بعد حجـر، إلى جدران مشروخة.

انتهى الدافع الذي كان يحفزني على المتابعة، وتكدّست في قائمة اهتماماتي أمورٌ أخرى، دفعتني دورة السنوات، وقسْوة الأحداث نحو هموم لم تترك في الرأس مكاناً إلا شغلته، في هذه النقطة، كان الابتعاد، قد فتح الباب للنسيان، انقطعتْ الصلة، وتكفّلتْ الأيام بإغلاق تلك الصفحة، حتى تمكنت العقود الثلاثة وهي تمر من دفع الذاكرة ليس في اتجاه نسيان الكثير من الأحداث التي مرت في حياتي، بل في الوصول إلى درجة من الانطفاء قرّبتْني من حافة أصبحتُ بسببها أفتقد ملامح أصدقائي القُدَامى، حتى كان اليوم الذي لعبتْ فيه الصدفة لعبتَها في صالة انتظار الحقائب في المطار الكندي.

من بعد تلك اللحظة,لم يعد الأمرُ يسير بالنسبة لي مثلما كان، ظللتُ لوقتٍ كُلّما جلستُ وحيداً وأمامي فنجان القهوة أفكر فيما جرى، لا أصدق أنّ أمراً كهذا سيطر على ذهني إلى هذه الدرجة، وأخذ مسار حياتي الرتيب إلى دربه، اختطفني من اهتماماتي المتشابهة، دافعاً بي نحوَ تحديات حقيقية، بات الشغل الشاغل لي فيها، هو في البحث عن إجابةٍ لسؤال واحد، يتفرّع إلى تساؤلات أخرى: ماالذى يضمن استمرار السعادة في عش الزوجية، الحب الملتهب الذي يجمع بين عاشقين، ثم يُتوَّجُ بالزواج، أم الزواج دون حاجةٍ للمرور بمسيرة حب تسبق

الاقتران؟ ما الذي يضمن لتلك الكائنات التي قررت السير في نفس الطريق، أن تتكلل سنوات العمر بسعادة مع الشريك؟

لستُ أعلم السبب وراء هذا الهوَس الذي اندفعتُ بتحريض منه، كي أقتطع من اهتماماتي، من مشاغلي، أوقاتاً للإجابة على سؤال كهذا، لكني في النهاية واصلتُ في الاستسلام لقدر لم يكن ليتركني أعيش في صفاء.

توقفتُ وأنا أستعيد الحوار الذي رحتُ أخوضه مع "منير" في أحد كافيهات مجمع "إيتون"، عند عبارة خرجتْ من لسانه خاليةً من أي محاولة لتخفيف وقعها:

- "لم يكن أمامنا إلاَّ الفراق".

بدتْ العبارة غريبةً لدى سماعي لها، لكنَّها باتتْ أكثرَ إثارةً للدهشة، حين أردف:

- "بعد أن أقدمتُ ثلاث مرات على محاولة الانتحار، خشيت أن تنجح في الرابعة،لم يكن هناك حل آخر أمامي، وإلا كانت الفضيحة".

إلى هذا الحد وصلت الأمور، انتحار تقدم عليه من كانت هدَّدت أهلها بالانتحار، إن أرغموها على الزواج من غير

"منير"، فأيُّ ملهـاةٍ تلك؟ وأين يجري كل ذلك؟ في قلب عشٍ لزوجين رفضا كلَّ المحاولات التي وقفت في طريقهما، وباعدتْ بسببه "هندُ" بين أبيها وشقيقه، كي لا تقبلَ بغير الذي أحبَّتْه، لماذا وصلت الأمورُ إلى هـذه النهاية؟ وكيف انقلبت الأحوال إلى النقيـض، من حب جـارف إلى كراهيـة لا ترى أي هدف أمامهـا إلا الخلاص ممن كانت تخوض معه واحدة من أجمل قصص الحب؟

أعـدتُ شريط الحديث الـذي كنتُ تداولتـه في تورونتو مع "منير"، وأنا في تلك السـاعات الحائـرة، التي امتدَّ الوقت فيها، انتقلنا من مكان إلى آخر، سرنا في أرجاء المجمع، جلسـنا عـلى المقاعد المثبتة على أرضيات نصوبة على أرضيات أركانه، تواصلتْ الحكايات لتدور في مجملها حول ما جرى، وما أوصل الأمور إلى نهايتها القاسية.

الوَلَـه الـذي كان في البداية، سرعان مـا راح يخفُت، ومع كل لحظـة كانت تمر على العاشـقيْنِ، اللذين أصبحا في لحظة مذهلة زوجين ، كانت حِدَّة الاختلاف تزداد، حتى خرجت من إطارها، وباعدت المسافة بينهما.

ظل الحديث يدور من وجهـة نظر واحدة، إلاَّ أنني كنتُ أتخذ فيـه موقف الطرف الـذي كان غائباً، والـذى كنتُ في

الأســاس، أحمل لــه كل تقدير، انطباعــاتي الأولى عن "هند"، ظلَّــتْ تأتي عبر "منير" الذي كان في الفترة التي أعقبت الزواج يكيل المديح لها، يشــعر بامتنانٍ لمــا أقدمتْ عليه، وحافظتْ على ما ظلَّ ينمو في قلبيهما طوال سنوات الجامعة، كان لديه شــعورٌ غامر بالتقدير، يــدرك في كل الأوقات أنــه لولاها، ما كانت الأمور ستسير في الاتجاه الذي قطعته، فدفعت العقدة للانفكاك.

لحســن الحظ فإن ذاكرتي استعادت معظم العبارات التي ردَّدها "منير"، بدتْ الأمور أكثرَ وضوحاً ، حين انطلقتْ أطراف الحديث حول هذا الموضوع تدور بيني وبينه، فخرجتْ ملامح صداقتنــا المدفونة في لحظة صدفة مــن مرقدها ، وحين نظر نحوي، بينما بدتْ على وجهه علاماتُ حسرة، اندفعتُ لأسأله:

- "كيف تشعُر بالامتنان لموقف هند، ثم تقبل بالانفصال عنها؟ ألم تتردد قبل أن تتخذ مثل هذا القرار؟" .

كســتْ فورةٌ من الدم وجهَه، رأيتُ البشرة الحليبية تتلوَّن أمامي بدكنة قرمزية ، خشيتُ في هذه اللحظة، من أن ينبثق الســائل الأحمر القاني من مســام جلده، لكنــه بعد لحظات، تمالك وهو يستعين بأصابع الكفِّ المتراصَّة، ويوجهها نحوي:

- "لم أتخذْ القرار، هى التي فعلت" .

لم يدفعْني قولُه للصمت، لأني في الأصل لم أشعُرْ بأنَّ ما ورد في كلامه كان كافياً ، وجدتني أواصل الضغط، ربما دون قصد:

- "لابد أن قرارها نبع من خيبة أمل".

- "لا شيء تغير سواها".

- "والحب الذي جمع بينكما ؟" .

- "تبخَّر".

- "دون أسباب؟" .

- "الأمرلم يكن يستدعي كل هذا البغض".

- "من حب جنونيّ، إلى بغض، إلى هذه الدرجة تحولت هند؟ " .

- "ولأكثر، كلما تذكرتُ ذلك، أشعُر بالأسي".

هذه المرّة، رأيتُه يمسك رأسه، يحيطها بكفيه من الجهتين، لم يعد دمُه هو الذي يكاد يخرج من مسامه، لو أنَّ الضغط تواصل، سيكون رأسي على وشك الانفجار، عندئذ، شعرتُ بأسىً عميق:

- "لنتوقفْ عن استعادة المأساة، يكفي ما جرى لك، لا أريد أن أزيد شعور الأسى لديك؟".

- "بل استمِرْ ، في بعض اللحظات النادرة ، نحتاج إلى تطهير النفس بالألم".

- "ألم تحاولا إعادة الحياة بينكما، ألم يكن من الأفضل أن تمنحَاها فرصة أخرى؟".

- "حاولتُ، وحاولَتْ، في كل مرة كان الطريق يؤدي بنا إلى الاصطدام في الحائط، كان الماضي يحرضنا على مراجعة النفس، نتحدث عن ضرورة عدم التفريط في رباط نسجناه على مدى سنوات، هي لم تستطع، ولا أنا احتملت، تحولتْ من عاشقة رائعة، إلى سوط يعذبني كل يوم".

الحبُّ والبُغْض، تلك المعادلة الغريبة التي تحكم المشاعر، ألا ينبغي العثور على حل وسط لها؟ الأمر أشد تعقيداً، إشارات تدور في الدماغ البشري، غموض لاهث، يقودنا إلى رباط، تهون الدنيا للقبض عليه، دفقات من مواد تفرزها غدد، وقت أن نتقابل بصدفة ما مع من يستقر فجأة في عمق الجوانح.

ظللتُ ألهَثُ كي أعرفَ ما هي التفاعلات التي يمكن لها أن تحول الحب المؤرق، هذا الهوس الجميل، إلى كراهية ، أنا الذي

لم يعد الحب ببداياته المفاجئـة، وعذاباته المضنية، والطريق الذي يتواصل عبره، حتى النهايات، يشـكل لي مفاجأة، ظللتُ أسـأل، كيف يحدث ذلك في لحظـة، ينتقل بعدها القلب، أو حتى الدماغ، إلى حالة مغايرة، شـعور نقيض وعدائي، تختفي منه رقة المحبين، ويصطلي فيه سُعار الحرب، كيف يمكن لمحب أن يفتدي بالروح محبوبه في لحظة، ثم يلجأ في لحظة مغايرة، عـبر ضغوط متراكمة، تحول متدرج أو مفاجيء للسـعي من أجل الخلاص ممن كان محبوباً ، إما بقتله هو، أو التخلص من النفس بالانتحار؟

- "المـرأة التي تحب إلى هذه الدرجـة، لا تتخلّى عمن أحبَّت إلا بدافع أقوى؟".

أمسك بمقبض مقعده، أعاده إلى الوراء، لكنه مدَّ قبضتيه، ثم فردهما وأمسك بنهايات أصابعه بطرف الطاولة، وراح يرمقني بنظرة، كان فيها من السخرية، قدر ما تنُمُّ عن الدهشة:

- "لا توهم نفسـك بأنك تفهم النسـاء، فلا أنا ولا أحد ادّعـى القدرة على حل لغز هـذا الكائن، ولا التمكن من فك غموض مشاعرها؟".

لم أفكر في الإجابة، وجدتني أندفع لأقول، كأني كنتُ حريصاً

عــلى أن ترتطم أول الكلمات التي أنطقها بآخر كلمةٍ خرجتْ من فمه:

- "لا تهــرب مــن الســؤال، ألم يكن ما رأتــه منك بعد الزواج، هو الذي أشعرها بخيبة الأمل؟ "

- "لم نكُــنْ عــلى وفاق، بعد شــهور قليلــة من زواجنا، سرعان ما أخذ البناء الضخم ينهار".

كانــت الصــور التي احتشــدتْ في ذهني، قــد أخذت في التراجــع، تلاشــت الواحــدة بعد الأخــرى، بعــد أن تعمدت السطوع فجأة وتنبيهي إلى ما كانت غلالة السنوات قد غطَّتْه بألحفة النسيان، رحتُ أواصل تساؤلاتي، غيرَ عابئٍ بوقعها على حالته:

- "ولماذا حدث هذا الترنح؟".

- "لسبب واحد، لا يخص هند وحدها، هناك من تنقلب أمزجتهن بين لحظة وأخرى، لا توجد حتى الآن زوجة شعرت بالرضا عن زوجهــا، ولا امرأة ظلت على حبها بعد أن أغلقت أبواب بيتها مع زوج كان في وقتٍ مَّا هو الحبيب".

- "لا أتحدث معك لأستمع إلى عموميات".

- "أقول خلاصة ما استقرَّ عليه المجربون، لا أمانَ لامرأة".

ظللتُ أشعر من نبرة الكلمات التي ينطقها "منير"، أنَّ المرارة لا زالت عالقة، على الرغم من مرور السنوات، فإنَّ تجربته مع "هند"، لم تغادر الذهن بعد، رغم تغير حياته، وارتباطه مع زوجة أخرى، وانتقاله للإقامة في أقصى شمال العالم، غيرَ أني كنتُ لا أزال على قناعةٍ من أنَّ المرأة إن أحبَّت فإنها تظلُّ أشدَّ إخلاصاً من الرجل، وأنَّ استعدادها للتضحية يفوق الذي أحبَّته بمراحل، وأنَّ هذا الكائن الباذخ الرقة، مستعدٌ دائماً للتغاضي عن إخفاقاتٍ كثيرة، في سبيل الاحتفاظ بالوهم الكبير الذي يداعب أشدَّ مناطق أحاسيسنا، كائن لا يتَّجه بسهولة إلى التفريط في حبه، ولا يمكن له التحول من أقصى درجات الحب إلى أشد حالات البغض، دون أسباب.

من هذه النقطة، تملَّكني إصرارٌ عارم، دفعني للاستمرار في البحث عن تلك الأسباب الغامضة، عن لحظة توقف فيها الزمن، وتساوَتْ الحياة والموت في نظر "هند".

وددتُ لو أستطيع السفر إلى مصر، لو أتمكن من الانطلاق في رحلة بحث، أعرف أنها مُضنية، للعثور عليها، ومراجعة ما جرى معها، غيرَ أني سريعاً ما عدلت عن الفكرة، واضعاً بعضَ الاحتمالات، كان من بينها إمكانية رفض "هند" استعادة

ذكريات مؤلمة، والآخر أنَّ الأمرلم يعد بعد مرور تلك السنوات يهمهـا، بعد أن انتهتْ التفاصيل، وافترق الحبيبان السـابقان عن بعضهما بأزمنة ومسافات بعيدة، ربما تناسى عقلها الباطن القصة بأكملها، لفظها وأبعدَها عن دائرة الاهتمام، لكن حتى لو حدث هذا، فهل يسـتطيع قلب امرأة، نسـيانَ أنه كان قد خفق له كثيراً ، ولعدَّة سنوات؟

***

في جلسةٍ تالية، جمعتْ بيننا، كان هناك ما يُعيد أجواء الإثارة إلى قلب "منير"، ثمة شيء دفعه لدعوتي إلى لقاء آخر، بعد أن شعر أن القلب الذي لم يسكن، منذ أن تمَّ الانفصال، في حاجة إلى من يشاركه استعادة لحظات قديمة مخبوءة، إرجاع عقارب الساعة إلى زمن ولَّى، كان لديه ما يهتم به أكثر من مجرد الحكايات، اقتطع من اليوم التالي، ساعات من وقت ما بعد الظهيرة، كان يسعى عبرها للعثور على حلقة مفقودة في حكاية الحب الذي فشل، والوصول إلى حل اللغز الذي ظلَّ غامضاً.

هذه المرّة بادرني هو، تعمَّد فور أن استوى على المقعد، وانتظم مرتكزاً على ساعديه، بدا الأمرُ لي أقربَ إلى التحدي منه إلى حديث ودود بين الأصدقاء الذين تفرَّقتْ بهم السُبُل، وأعادتهم صدفة إلى اللقاء:

- "لماذا الإصرارُ على معرفة كافة التفاصيل؟".

باغتتني لهجة السؤال، غيرَ أني من بعد عدة لقاءات خلال اليومين الماضيين، كنتُ قد هيَّأتُ نفسي لتقبل حقيقة أن "منير" الذي كنت أعرف، لم يعد هو نفسه، السنوات التي راحت تنحت في شخصياتنا، التحديات التي واجهتنا، واللحظات المتقلبة التي مرت، تركت فينا، أنا وهو، ما لم نكن

نعرفه عن بعضنا البعض، قلت رُبَّما لأطمئنه:

- "أريد معرفة السبب الذي يجعل مثلَ هذا الحب ينتهي هكذا، وكأنَّ شيئاً لم يكن؟".

ابتسم هذه المرة، بدا كأنه يُخرج لي لسانَه، لمحتُ غمزة طفيفة في نهايات عينه اليمنى، وهو يرُدُّ:

- "هناك ما لا يمكِنُ أن أقوله لك".

بادلته الضحكات، اختلطت قهقهاتنا وعلَتْ في المكان، لم يُعِرْ من كان إلى جوارنا أيَّ انتباهٍ لطريقة الضحك التي استرسلْنا فيها، حين خفَت الصوتُ، قلتُ:

- "لو لم تُرِدْ قولَه ، ما كُنتَ طلبتَ لقائي ثانيةً ، لازلتُ أزعُم أنه رغم ابتعادنا كل تلك السنوات، لازلتُ أفهمك جيِّداً".

بدا جاداً أكثرَ من أي وقت سبق، رجع بمقدمة رأسه إلى الأعلى، ثم قال:

- "ما الذي تريد أن تسأل عنه؟" .

- "سؤالي هو عن السبب الحقيقيّ الذي يجعل "هند" تتحول، من التهديد بالموت لتكون إلى جوارك، إلى اختيار الانتحار إن لم تتمكَّنْ من الانفصال؟".

لامسـتْ كلماتي وتراً حسَّاسـاً، بدتْ على ملامحه علاماتُ غضب خفيف، تمالك نفسـه، وابتلع ريقه، رأيتُ نبضاً يسري فجـأةً في فقرات رقبته، سـارع إلى القبض عـلى زجاجة المياه المعدنية، واحتسى نصف ما احتوته، قبل أن يسأل:

- "وما الذي سيعنيه معرفة ذلك؟ ".

- "ألاَ تـرى أنَّـه أمرٌ مثـيرٌ للفضول، اعتـبرْنِي متطفلاً ، عاصرتُ بدايات القصة، أريد الآن فهمَ ما جرى في نهايتها؟ ".

- "ولماذا تجلبُ لنفسك نكداً؟".

- "لأن فرحتـي بكما في البداية كانت عارمة ، وربما لأني أريد الآن أن أعرف لماذا خابتْ توقعاتي إلى هذا الحد؟".

كنتُ أظـن أنَّ هناك ما يجعل "منير" مـتردداً هذه المرة، فالذي باح به، لم يلقِ بأيِّ مسؤولية على نفسه، اعتبر أنَّ "هند" التي قاتلت لأجله، هي التـي انقلب مزاجها، دون مقدمات، غير أنه كان حتـى اللحظات الأخيرة من لقاء الأمس يدرك أن المـبررات لم تكن مقنعة لي، بقدر ما صدقتها زوجته "رشـا"، عندما برر لها طلاقه من زوجته السابقة.

لم يكـنْ لديّ الكثيرُ من الوقت كي أضيِّعَه، فقد كان أمامي وقت قصير، في كل مرة كنتُ أسعى لإعادة صياغة كلماتي قبل

أن أوجهها لمنير، خشـيتُ أن تتسـبَّب بعضُ الأسئلة في جَلْب الحـرج، لكني أدركتُ فيما بعد، أن الأسـئلة التي تُوَجَّهُ إليه، مهما كانت قسوتها، تقدم له المساعدة لإخراج ما ظلَّ مكتوماً في القلب، ذلك الذي يساهم أحياناً في تطهير الروح من عقدة ذنب، أصبحتُ على يقين من أن "منير" يشـعر بها، حتى وإن حاول الإنكار.

هبَّ واقفـاً ، فوقفتُ أنـا الآخر، متأهِّباً للمغـادرة، لكنه ابتسـم، قـال أن الوقت لا يـزال مفتوحاً لأن "رشـا" منحته وقتاً للتفـرغ لي، إلى أن يحين وقت مغادرتي، ربَّتَ على كتفي دعاني للعودة لمقعدي، وبرأسه أومأ إلى المكان الذي يقف فيه العـمال لإعداد القهوة، ثم انطلق بعدها وغاب هناك لدقائقَ ، ثـم عاد يحمل كوبين متوسـطي الحجم على صينية صغيرة، وإلى جوارهما أكياس سـكر ذات لون بنـي للتحلية، وملاعق بلاسـتيك، ومناديل ورقية غامقة، وضـع الصينية في منتصف الطاولة، وراح يفرغ أكياس السكر، ويقلبها في كوبي النسكافيه، ودون أن ينتظر مني تساؤلاً راح يواصل الحديث:

- "هند كانت السبب في انهيار بيت الزوجية، هي التي بادرت إلى هدمه".

أمسكتُ بالكوب، رشفتُ منه في بطء، وأنا أنظر ناحيته:

- "لكـنَّ الذي أعرفه، أنَّ هندَ ليسـتْ ممن يفرط فيما نجحتْ في اقتناصه".

هزَّ رأسَـه، كأنه يوافقني هذه المرة، عاد من جديد لينظر إلى الطاولة، وعلى وجـه التحديد في ذلك الجزء القريب منه، تدلى رأسه، فأعطاني انطباعاً بحجم الألم الساكن فيه:

- "فعلتْ هذا في النهاية، وضحَّتْ بالزوج والزواج".

- "وما الذي يدفعُها لذلك؟".

مطَّ شفتيه، فظهرتْ السفلى أطول من العليا، بينما ضاقت حدقتا العينين، وانكمش الجلد:

- "ملل، ألا يُصَابُ الأزواج بالملل ؟ هذا ما حدث، الحبُّ الذي جمعنـا لم يكن عاقلاً، كنَّا حبيبين نزقين، حصرا أحلامهما في تحقيـق هدف واحـد، أن يضمَّهما بيتٌ واحـد، ويتحدَّيا العقبات، وعندما نجحا، لم يعد لديهما هدفٌ آخر".

- "هـذا وحده لا يفسر الأمر، الحيـاة أيضاً بعد الزواج مليئـةٌ بالتحديات، وهذا مـا يُبْعِدُ الملل عنكـما إن واصلتما حياتكما بنفس الروح التي بدأتما بها".

بدتْ السـخرية عليه هذه المرة، أكـثرَ من أي وقت، وهو يشير بيديه نحوي:

- "عـن أية روح تتحدث ؟ قلتُ لك أننا افتقدنا الهدف بعد الزواج، لم نذُقْ طعم العسـل، إلاَّ في شهور قليلة، ثم ذاب واختفى تماماً ".

قال ذلك، ثم راحتْ أصابعه تتحسَّس، دون أن يدري، ياقة القميـص، تأكَّد مـن انتصاب أطرافها، راح يمـرر الأصابع عند الرقبـة، بتلقائية من يريد أن يتأكد أن رابطة العنق رابضة في مكانها:

- "منذ اللحظة التي أصبحنا فيها معاً، ونحن نعتقد أننا وصلنـا إلى الهدف الذي كافحنـا لنيله، منذ أن وصلنا إلى تلك القناعة، بدأت الأمور تتراجع، من وقت إلى آخر يطقطق شيء مـا في الجدران، شروخ بدأت أصواتها تضـج في داخل البيت، ومن يومها ونحن نحاول ترميمها، لكن دون أي نجاح".

تجاهلتُ ذلك، رحتُ أسـأله وأنا أحاول إبعاده عن حالة الارتباك التي رأيتُه غارقاً فيها:

- "وكيف اختفى الحب سريعاً؟".

- "لأننـا قلنا كلَّ شيء في الفترة التي ارتبطنا فيها بقصة الحب، كل ما كان لديّ لكي أحافظَ على حبها، الكلام، الإيماءات، اللمسـات الرقيقة، كل ما كنتُ أعرف لم أتردد في فعله، وهي فعلتْ أيضاً، لم تُخْفِ عني مشـاعرَها، كانت تسحرني، برقتها،

بكلماتها الناعمة، بدلال الأنوثة حتى تزوجنا، حاولنا الاستمرار في القصة، المخزون الذي كان لدينا، أخذ يتناقص، ثم بدأ في النضوب، صار الحب يخفُت يوماً بعد يوم، حتى صحونا ذات مرة، فلم نجد سوى الفُتَات، فرَّت كل الكلمات، وخرستْ الألسنة، واختفت من شفاهنا بقايا الكلمات، حاولنا البحثَ عنها، في صدورنا، فتَّشْنا القلوب، في أرجاء البيت، دون أن نجد لها أثراً ".

اقتربَ منا عامل الكافيه وهو يرتدي مريولاً له لون أخضر، ويحمل في يديه صينية كبيرة فارغة، لملم الأكواب الفارغة والمناديل الورقية المستعملة من أمامنا، نظرتُ إلى "منير"، عرف أني أنبهه إلى أنَّ موعد إغلاق المكان قد حان، أشار بيده لأواصل الحديث، قال أنه لن يغلق قبل ساعة أخرى، استجمعتُ أفكاري، بعد أن شتَّتها العامل، رحتُ أقول:

- "لو فعل الذين عاشوا قصص الحب مثلكما وتزوَّجوا، لما وجدنا عُشَّاقاً استمرَّ الزواج بهم طوال العمر".

رسم ابتسامة على وجهه، نظر طويلاً إلى الطاولة، ثم رفع رأسه وصوَّب عينيه نحوي:

- "ربما تتحدث عن أقلية، مجرد أعداد محدودة في هذا العالم، يمكن عدُّها على أطراف أصابع اليد الواحدة، أما أغلب

القصص فهي تنتهي إلى نفس المصير الذي انتهتْ إليه قصتنا".

- "نتيجة محزنة، أيعني هذا أن الزواج الذي يتم بطريقة تقليدية، هو الذي يظلُّ ثابتاً ، أمعقولٌ أن معظم الزيجات الناجحة تأتى من دون المرور بقصة حب؟".

- "إنْ سلَّمْنا بأنَّ التعميمَ في أحكام كهذه ، ليس أمراً صائباً، فإنَّ كثيراً من الزيجات التي صمدت في وجه الزمن وقاومت منغصاته، تمت باتفاقات كان الدورُ الأساسي فيها للعقل".

لُذْتُ بالصمت، حين رأيتُ بدايات دموع تغطي حدقتيه ، أدار وجهه قليلاً، ليخفي عبراته، تظاهرت بعدم الانتباه، بعد فترة سكوت، عاد ليواصل الحديث:

- "هل تعرف أنِّي ظللتُ لوقت أتساءل بيني ونفسي، لماذا نجح أبي وأمي في تثبيت أركان حياتهما الزوجية، وكذلك عدد من أخوتي؟ ولماذا فشلت أنا رغم أنى سلكتُ وهند الطريق الذي ظلَّتْ أفلام السينما، والروايات الرومانسية، تشدد عليه، الحب، ولا طريق للسعادة، غير هذا الذي يخطف قلوبنا ويأسرها، يقودنا فنسير خلفه مستسلمين؟ لم أسأل نفسي فقط، حين كان رأسي على وشك الانفجار، ذهبت بعد أن حلَّتْ الكارثة، إلى من هم أكثر مني تجربة، وكان هناك من

فسِّر الأمر".

- "وما الذي قالوه؟".

- "العلاقة بين الأزواج أشبَهُ بكارت الشحن، حيث يكون الرصيد ممتلئاً إلى أقصاه لمن تزوجوا عن حب، قبل الدخول إلى عش الزوجية، فإن حدث ما هو أقل من طموح الزوج أو الزوجة، فإنَّ هذا الرصيد يتناقص حتى ينتهي، فتتحول الحياة إلى صمت مطبق، أو تنحرف إلى الجهة المعاكسة، لتصبحَ جحيماً لا يُطاق ، هذه الحالة تكون عكس الزواج الذي يتمُّ دون حب، ولا معرفة عميقة، فالرصيد يكون خاوياً، غير أنه يزداد، كلما خرجتْ من أحد الزوجين كلمة أو لمسة، أو مشاعرُ رقيقة، يتواصل الضخُّ في الحساب، مع تحول تلك العلاقة التي يتم استكشافها رويداً، وتصبح العيوب مقبولة، وقابلة للتعديل في مرحلة الاكتشاف، على العكس من أصحاب الحب السابق للزواج، الذي تبدأ فيه العيوب الخفية في الظهور، لتهدأ الحرارة، وتسود خيبة الأمل، فيخبو الحب، إلى أن يصل إلى مرحلة لفظ الأنفاس".

*****

الفصل الخامس

- "الحياة سـباق لا يتوقف حتى تنقطع الأنفاس .. كلنا يركض بدأب من أجل الإمسـاك بذلك الغامض المراوغ الذي اسـمه السـعادة .. فهـل يمكن لأحد الزعـمُ بأنه تمكّـن من الظفر بها؟".

حـــين مرَّ الوقتُ سريعاً في المرة الثانية، كنتُ أنا في حاجة إلى لقـاء ثالث، وكان "منير" قد راح يفـسر الأمر لي، دون أن يدخـل في عمـق الموضوع، كنـت على يقين من أنـه لا يريد الكشف عن الأسباب الخفية بتفسيرات راح يطلقها عن الزواج عن سابق حب، والزواج التقليدى.

لم أترك له الفرصة للمزيد من الالتفاف، ورحتُ أُباغِتُه:

- "مازلـتُ مُصِرّاً على معرفة السـبب الـذي كان وراء تهديد هند بالانتحار".

عاد إلى نفس ابتسامته الساخرة، فيما كان المكان يخلو من حولنـا، انتظرتُ أن يهبَّ واقفاً، لأمشي معه، وأعود إلى غرفتي بالفندق الذي يقع على بعد مسـافة قصيرة من المجمع، لكنه لم يكـن على ما يبدو يوَدُّ الحديـث، لأنه واصل دون أن تبدُرَ منه علامة على قرب انتهاء الحديث:

- "ألم أقـلْ لـك عن نظرية الحسـاب البنكيّ قبل الزواج وبعده؟ ".

- "كنـتُ سـأصدقها، لو أن الأمر اقتـصر على الملل، في حالةٍ كتلك كانت هند ستستـمر معك، على الرغم من تحول الحـب، إلى حكاية زواج صامت، لا تتدفـق في شراييـنها دماء الحياة".

بـدتْ علاماتٌ على ملامحه، أشـارتْ لي أن هناك ما يدفع الضجـر إليها، أردتُ التوقف وإنهاء اللقاء ، لكنه لم يمكنّي من فعل ذلك، فسرعـان ما نطق، بينما خلت تعبيرات الراحة من على وجهه:

- "ومـا الـذي تنتظر منـي قوله، مادمـتَ لا تصدق حديثي؟".

وصلتْ الرسـالة واضحة، بدأ صـدر "منير" يضيق، بعد أن كان قد أوهمني أن تساؤلاتي تساعده على التخلص من أدران عالقة، صدقته أنا، وسـعيت لأفهم التداعيـات التي أطاحتْ بقصـة حب كنتُ أعتبرها نادرة، قلـتُ له في هدوء، كي أنهي هذا الحوار، بعد أن وصل إلى محطة الضجر:

- "يكفي هذا، علينا أن نلتقط أنفاسنا، يكفي لي رؤيتك، والاطمئنان عليك، حتى وإن جاء ذلك بصدفة محضة".

فهم المغزي على الفور، فسـارع إلى الاعتذار، عاد ليؤكد أن

الحديث يسبب له راحة، ابتسم هذه المرة، وأراد المداعبة:

- "من في هذا المكان البعيد، يمكن أن أتحدث معه فيما يثقل الصدر؟ كنت في حاجة إلى تلك الصدفة، اطرح تساؤلاتك ولا تـتردد، لا عليك مـن أي انطباعات قد تبـدو على الوجه، فحقيقـة الأمر، أني معك، أتحدث إلى نفـسي، أين توقفنا؟ ما السؤال الذي طرأ على ذهنك؟".

- "كنـتُ أوَدُّ معرفـة، مـا الذي حدث منـك، ودفعها لتفضيل الموت؟ ما الذي يحرض إنسـانة كانت تحبك إلى هذه الدرجة، كي تقاتل فيما بعد للابتعاد عنك؟ هل خُنتَها مثلاً ؟".

ارتفـع حاجباه، ثم هبطا، حدَّق فيّ مذهولاً، تعمَّدْتُ أن لا تبـدوَ على وجهي، إلا تعبيرات هادئـة، ومن عيني غير يقين، عندها هبَّ واقفاً، ثم سـحب كرسيه إلى جانبٍ تتقلص عنده المسافة، أسند مرفقه على الطاولة، بعد أن صار في مكان أقرب:

- "هى تصوَّرتْ ذلك، خدعت، ووقعتَ في شرك تمَّ نصبُه لها بعناية، اندفعتْ لتقطع آخِرَ خيطٍ بيننا؟".

- "هنا إذن مربط الفرس، قل لي ما الذي جرى؟".

حدَّق فيّ هذه المرة بعينين بدتا لي صافيتين، على الرغم من

أنَّ وقتَ جلستنا طال بأكثر مما كنت أتوقع، مال صوتُه إلى الهدوء، وبدتْ الكلمات تخرج من فمه بطيئة:

- "توارى العقل، واندفعنا حين كان كلٌ منا يتصور أنه امتلك الآخر، لم ندرك في عز اندفاعتنا أن هناك ما يجب عمله حتى تظل حرارة الحب مُتَّقدة، أنا حققتُ ما أردتُ وهي أيضاً، وتناسينا أهمية أن نظلَّ نحافظ على دفء اللهفة واتِّقاد الشغف في حياتنا، هذا كل ما في الأمر، اختفى المنطق، وتركنا أنفسنا للحب الأعمى ليقودنا، هل تعرف ما الذي يمكن لهذا الأعمى أن يرتكبه حين يمسك باللجام ويقود العربة؟".

- "ما زلتَ تهرب، لم أسمع منك إجابة مباشرة على ما سألت، لا تدُرْ بي حول الموضوع".

- " ما أقوله هو في صُلب الحكاية، كانت البداية هكذا، وفيما بعد، مهدت تلك القصة الطريق أمام ما هو أكثر سوءاً، ما يطلق عليه، القشة التي قصمت ظهر البعير".

- "عن أيِّ قشة تتحدث، وعن أيِّ بعير، لتدخل في صلب الحكاية، مادام هناك الأشد سوءاً من خفوت الحب؟" .

عاد "منير" ليتراجع قليلاً إلى الوراء ، وجهه الذي بدا هذه المرة نحيلاً ، اكتسى بدكنة، كانت أشد مما كانت عليه قبل أن

أواصل إلحاحـي، تغيرت الملامح حتى بدا كأنه شـخص آخر، ظلَّ صامتاً، وضع كفَّيْه حول رأسه وأحناه، ظلَّ وقتاً على هذه الحـال، حتى ظننتُ أن عارضاً أصابـه، هززته من كتفيه وقد تملكني الخوف، انتبه "منير"، كأنه صحا من غفوة، وراح ببطء يسرد بعض خيوط ما جرى في تلك الأيام ، يسـتجمع بصعوبة آخر ما احتفظت به الذاكرة.

قال فيما قال، والكلام هنا يحمل شبهة الرأى الواحد، حيث تُروَى الحكايةُ من الجانب الذي يراه السَّارد مناسباً له:

- "حين تسلمتُ مهام وظيفتي، معيداً في الكلية، شعرتُ بأني حققـت حُلماً طالما ظلَّ يتراقص أمـام عينى، وعلى وجه التحديد،لم يكـن حلمي وحدي، هند التـي كانت زميلتي في نفس السـنة، كانت تحرضني على تحقيق ذلك، ظلت في كل وقت تقف إلى جانبي، ومن المؤكد أنها، وأنا الآن أسـتعيد كل الذي جرى خلال سنوات الدراسة، ضحَّتْ بالكثير، من أجل أن أواصل تفوقي في نتائج نهاية السنة، حتى تم اختياري للعمل في هيئة التدريس" .

وقبل أن تمرَّ ستة أشهر، ادَّخرتُ مبلغاً، عن طريقِه استطعتُ تأثيثَ بيت الزوجية، ثم تمَّت مراسـم العُرس، وانتقلت معي إلى طنطا التي أحببناها، والتى شهدت كل فصول قصة العمر،

التي لا أستطيع مهما حاولتُ أن أنساها، لأنها لم تكن مجرد حكاية من حكايات الحب.

مرَّتْ شهور في عشنا المتواضع، في الشهر الأول كانت نشوة الانتصار على العقبات التي وقفت في طريقنا، لا تزال تحرضنا على البقاء لأطول وقت في حال البهجة، وفى الشهر الثاني، بدأنا نشك في أن الحبَّ وحده، وكلماته المعسولة كافية ليصبح البناء صلباً ، بدأت الأمور تتكشَّف في بطء، حين أخذت السكرة تروح عنا، تسللت الانتباهة في أوصالنا، وراحت تكشف لنا ما لم نكن على علم به.

فى الشهر الثالث، مالتْ الأمور نحو الهدوء، باتت المشاعر اللاهفة التي كنا عليها قبل الزواج تخبو، داهمني شعور بأن هناك ضرورة للتوقف عن المساعي التي كنت أبذلها لإبقاء شرارة الحب مُتَّقدةً، لكنَّها لم تكن تصدق كل ما كنتُ أقوله، نفس الكلمات التي استخدمتها، نفس المحاولات التي كنت أقدم عليها، وكانت تلقى صدىً مفرحاً منها في وقت سابق، كانت هذه المرة، تقرأ ملامحي، بعد أن تمكنت من فك شفرتها، باتت تدرك أنَّ ما كان نابعاً من داخل القلب قبل الزواج، لم يعُدْ سوى مفرداتٍ مكررة، تفتقد الروح، وتقترب من حدود أداء أدوار محفوظة في تمثيلية، يعرف المتلقى ما سوف يردده

المؤدي في الجملة التالية، وهو يسعى إلى إيهام الجمهور، بأن ما يجرى في الخيال، هو عين الحقيقة.

فى الشـهر الرابع راحتْ الأمـور تتجه إلى مزيد من الفتور، حتـى وإن كانت الحياة تسـير في طريقها المعتـاد، تقلَّصتْ المسـاحة المخصصة للحديث، وتناقصت مـن قبلها ما كانت الروح تتوق إليه، اتجهت الأمور وإن ببطء، إلى مسـار مغاير، سكن القلب وانتظرته الجوارح، عندئذٍ بدأتْ علاماتُ الخلاف تحفر نفقاً داخل مشاعرنا، دون أن يدركَ أيٌّ منا أنَّ ما يتسلل في حذر، راح يتَّسع حتى احتلَّ يوماً تلك المساحة التي غطَّاها فيما بعد، وكأنه لم يكن هناك، ما يربط بين القلبين.

لم يمضِ الشهر السادس بطريقةٍ أفضل من الأشهر السابقة، اقتحـم الجفاف الـروح، وباتت القلوب مغلفـة بمتوالية من خيبـات الأمل، لم يعـد البيت يعني لكلينا أماناً، ولا سـكينة، تحولنـا بعد الاقتران إلى كائنـين، يحاولان الحفاظ على الخيط الرفيع الذي يربطهما، غيرَ أنَّ الأمر، كان بحاجةٍ إلى جهد خارج العادة، أفلحتُ في مرات وأفلحتْ هي، لكنَّنا كنا ندرك أن بذل المزيد مـن الجهد كان أمراً فوق قدرتنا، بعـد أن ازداد الرَّتْقُ اتساعاً ، وتدخلت كثيرٌ من العوامل، حتى استطاعت استغلال الفرصة، وتمزيق الثوب في النهاية".

كان الألم يعتـصره وهـو ينطق آخـر الكلـمات في بطء، لاحظت ذلك في شحوب طفيف، راح يتمدَّد فوق جلد الوجه، وفي نظـرات العينين اللتين بدتا لي زائغتـين، أكثر من أي مرة، وددتُ لو وافق عند النقطة على إنهاء الحوار، لكنه ظل يحكي، ولا يريـد التوقف عنـد نقطة معينة، عـلى الرغم مما كانت تحملـه الذكريات مـن آلام، ومع أني حاولـتُ أن أخفف من لهجة التساؤلات، إلا أنه في بعض الأحيان كان يمنحني انطباعاً برغبتـه في أن يكون لبعض الأسـئلة حدة النصـال المصقولة، وأمام تحريضه، ما كان لي أن أكبح جماح التساؤلات:

- "كيف يتمزَّق الثوب هكذا؟ وينهار كل شيء، في الوقت الذي كان يتطلب القيام بمراجعة جريئة لمسار حياتكما؟".

سألتُ عندما فاجأتني نبرة الحزن في كلمات "منير"، شعرتُ لبعـض الوقت بالتعاطف، حين رأيتُ حالة مؤلمة من الذهول تتلبَّسُه، لُذْتُ بالصمت، فالتقط بداية الخيط، وواصل:

- "كان بيننا عزت، هل سمعت هذا الاسم من قبل؟".

- "لا أتذكر، من هو؟".

- "ابن عم هند".

- "أهذا هو الذي كان السببَ في حدوث المشكلة عندما تقدم أهلك لخطبتها، وأبوه هو الذي أبلغكم أنها مخطوبة؟".

- "تدهشـني ذاكرتك، لا زالتْ كـما عهدتها، أخشى أن تكون اخترتَ بعض التفاصيل عن حماقاتنا أيضاً".

- "لا تبتعـدْ عن الموضوع، ما دخل عزت بكما، ألم تنتهِ حكايتُه بعد أن تزوجتما؟".

- "بل اسـتمرَّتْ، كان يتابع أحوالنا، وينتظر مثل ذئب، أيَّ لحظة مناسبة، بينما توهَّمْنا، أن الأمور استتبَّتْ لنا".

- "أتقصد أنها، الآن قد....؟" .

لم أكمل السـؤال، شعرتُ بالعرق يتسلل من مسام وجهي، متزامناً مع حالة من الذهول أصبحت أعيشـها، وأحسسـت أننـى أعوم في وسـط حمام، يتصاعـد بخاره حارقـاً ويلهب الجسد,لم تكتفِ بتلك المساحة، تمدَّدت لتشمل الأطراف، بعد أن اخترقت الفؤاد، وصعدت إلى كهف الروح.

- "لتسـمع الحكايـة إلى نهايتها، ألا تريـد ذلك ؟ ولك الحكم على ما جرى".

- "أنا أسمعها من طرف واحد؟".

ظلَّتْ أعداد من الناس تتجه نحو باب الخروج، بينما الذين كانوا يدخلون قلة، بدت الساحة القريبة من مكان جلوسنا تمنحني انطباعاً بأن موعد إغلاق المجمع قد اقترب، لكن "منير" ظلَّ على حماسه في إكمال سَرْد كل ما اختزنه من تفاصيل، لا يريد تأجيل الكثير منها إلى اليوم التالي، أو حتى إلى زيارة لاحقة لي إلى تورونتو، قد تكون في الصيف القادم، لم أعُدْ قادراً على إيقاف تدفق كلماته، مع أني تعمَّدْتُ في بعض الأحيان استفزازه، لكنه مثل كل مرة، كان يمتص غضبه، ويسارع بالرد عليّ:

- "ثِقْ تماماً في أنه لم تعد لي الآن مصلحة، بعد كل السنوات التي ركضت، في أن لا أكون صادقاً ، انتهى كل شيء، لم يعد هناك أمل في عودة ما كان، لا أفكر في هذا الأمر منذ زمن، وأعيش الآن حياة مستقرة، أقيم وأعمل في بلاد تبتعد عن طنطا والإسماعيلية بآلاف الأميال، ولا أمل لي، ولا حتى رجاء ، في متابعة أخبار "هند"، انقضى كل شيء، وتكفَّل الزمن بطَمْر ما كان ظاهراً فوق التربة".

تعمَّدْتُ أن أمنحه ابتسامة ساخرة، من نفس النوعية التي كان يلقي بها بين الحين والآخر في وجهي كلما كنتُ أحاصره بالأسئلة، واصلت:

- "لديّ شـكوك في أن يكون الزمـن قد تمكن من هذا، حتـى لو كان الحـب الأول أرعن، فإنه يظـلُّ باقياً في أرواحنا مهما حاولنا إبعاده، وأنا أدرك الآن، أن حبَّك لهند لن يزول من الذاكرة بسهولة".

- "بل تحوَّل إلى ذكرى، أؤكد لك أن بقايا آثاره لم تعد في القلب، تطايرت علامات النزق، واحتل العقل المكان".

- "وما علاقة عزت بالأمر كله؟".

دارتْ يداه، دون تركيز واقتربت من النسـكافيه الذي فقد سخونته، اصطدمت أصابعه بجدار الكوب الورقيّ فترنَّح وكاد أن ينسـكب، سارعتُ لإنقاذ الموقف، وأمسكتُ به في اللحظة التي كان قد تهيأ السـائل لإغـراق الطاولة، أعدْتُ الكوب إلى مكانه، وجاء رد فعل "منير" أشـبهَ بمن أفـاق للتوِّ من منام، استطرد بعد أن استردَّ وعيه:

- "اعتباراً من السـنة الدراسـة التالية، أصبحتُ معيداً، ومنذ الأشهر الأولى لدخولنا قفص الحياة الزوجية، بدأت هند تعيش حالة من القلـق، لمحتُه في عينيها طوال الوقت، كانت تفلـح في كتمانه مـرات، وتخفق في القليـل، لكني حين كنت أسـألها، كانت تنفـي، وتؤكد أن لا شيء يسـتدعي مثل هذا

الظن".

- "وما الذي دفع القلق إليها؟".

- "لم أعـرف في ذلك الوقت، على الرغم من أني حاولتُ بإصرار، بعد أن أخذتْ حياتي معها تتحول بالتدريج إلى السـير في طريق آخر، بدأ بصمت ثم بانفعال لم أعتدْهُ منها من قبل، تحولت الحياة إلى جحيم حقيقي، حاولتُ فهم الأسـباب، غير أنها ظلت تبتعد في كل مرة عن البوح".

قرَّرْتُ من جديد مباغتته، بالضغط على نفس النقطة التي سبق أن طرقتها:

- "هل كانت لك، في ذلك الوقت، علاقةٌ مَّا بامرأة؟ لابُدَّ أنَّ هناك جرحاً حدث لمشاعرها".

- "كان وهماً وقامتْ بتضخيمه، لم أكن أحب غيرها".

اعتبرتُ ردوده تملُّصاً من إعطاء إجابة واضحة، لكني لم أكن قد شعرتُ باليأس بعد:

- "أكانتْ هناك امرأةٌ أخرى؟".

- "قلتُ لك ، لم يكن حُبَّاً ".

بدأ الأمر يقترب من لحظة الصفاء، شـعرتُ عندما سمعت هذه الإجابة، أنَّ خطأً كبيراً قد ارتُكِبَ، وحشر مقدمة الزورق عند نهايات زلقة في بحيرة راكدة:

- "أكانت هناك علاقة، وهى علمتْ بها؟".

- "نعم، نزوة استجبتُ لها، ووصل الخبر إليها، فاندفعتْ تحطم كل ما كنا بنيناه".

مع أنِّي غرقتُ في الذهول، فإنه كان يتحدث دون أن تظهر عـلى وجهه أيُّ ملامحَ تنُمُّ عن أنَّ أمراً غيرَ معتاد قد حدث، لم يتردد، لم تحدث له أي ارتباكة، أغاظني ما رأيتُ، فرُحْتُ أقول:

- "أكنـتَ تتصور أن على من أحبَّتـك، وقاتلتْ معك في المعركة نفسها، أن تتقبل في يسر علاقتك بامرأة أخرى؟".

- "قلـتُ لك، كانت نزوة، وجدتنـي أنغمس فيها، هند هي التي دفعتني لهذا".

ماذا كان عليّ أن أفعل، وأنا أستمع إلى تلك الكلمات، وهو ينطقها ببسـاطة، دون أن يمنحنـي أيَّ انطباع بالأسى، غير أن تبدر مني دون أن أقصد، تسـاؤلات تحمل من السخرية، قدرَ ما تحمل من مفردات الاستهجان؟

- "أقالتْ لك : اذهبْ وأقِمْ علاقة مع غيري؟ أم أتتْ بهذه المرأة وقالتْ: عليك أن تعشقها؟".

- "لا تسخَرْ أرجوك، ولا تدفعْني للتوقف".

على الفور أدركتُ أني دخلتُ في المنعطف الذي قد يتسبب في الغضب، سارعتُ أتدارك الأمر، قلتُ له في هدوء، مع رسم ابتسامة على الوجه، فيما يشبه المداعبة:

- "لا عليك، أنا أعيش الحالة، وأتعجب، ربما لأني كنت أظن أن هنداً تستحق منك ما هو أفضل".

- "في واحدة من الحفلات العامة التي ظلَّتْ هند ترفض حضورها معي، تعارفتُ بواحدة من السيدات، كانت متزوجة، غير أنها كانت تمر بمنعطف صعب في علاقتها مع زوجها، منذ اللقاء التالي راحتْ تفتح لي قلبها، تحكي لي عن الأزمات التي تمر بها، كانت الأحداث تتشابه مع ما يجري بيني وهند، نفس علاقة الحب التي ربطت بينهما، نفس الصقيع الذي هبَّ فجأة وضرب العش الزوجي، نفس الفتور الذي لا علاج له، نفس الأسى الذي بات يسكن الروح ويواصل البحث عن خلاص، كانت همومنا واحدة، كأني كلما استمعتُ إليها، كنت أستمع إلى صوت يردد مأساتي، كانت الأمور بيني وهند تنزلق

سريعـاً إلى حافـة الهاوية، حتى وإن كنـتُ أوهم نفسي، بأن الرِّهان على الوقت، سـوف يصُـبُّ في النهاية، في صالح إعادة العصافير إلى الاستقرار في أعشاشها".

- "وشـعرتَ إذن بانجـذاب، نقول عنه نحن - الرجال - أنه مجرد تسلية لقضاء الوقت ، أليس كذلك؟".

- "لا تعُدْ إلى السخرية، هذه المقاطعة التي تقوم بها، قد تقطع حبل الأفكار، فلتنتظرْ حتى أنتهي منها".

كنـتُ في حاجةٍ لمعرفة بقيـة الأحداث ، على الرغم من أنَّ معظم العمال راحوا يلملمون المقاعد وينهون الحساب بسرعة تمهيداً لوصول لحظة الإغلاق, بينما العاملون في الكافيه الذي نجلس فيـه ، راحوا يمسـحون الطاولات ويقلبـون الكراسي، ويرصُّونهـا الواحد فـوق الآخر, على الرغم مـن ذلك، ظللتُ أتمنَّى أن يُتاحَ لي الوقتُ للاستماع إلى القصة بكافَّة تفاصيلها.

- "ليكُنْ ، أكملْ".

- "تواصلتْ اللقاءات ، اثنان يشـعران بتعاسـة هائلة، فقدا الأمل في إصلاح الحال مع الطرف الآخر، كانت السـعادة تجيء فقط في اللحظات التي نلتقى فيها، لم أحكِ لها يوماً عن حياتي مع هند، فقط كنت أسـتمع، ويبـدو أنها لم تكن تريد

مني إلاَّ الإنصات، كانت في احتياج إلى من يُصْغِي السمع".

- "وأين كانت لقاءاتكما تتم؟".

- "في البداية، في الأماكن العامة التي توفر مناخاً هادئاً، ويرتادهـا عددٌ محدود من البشر، بحثاً عن حالة رومانسـية، قبـل أن نقرر فيما بعد اختيار أماكن أخرى، ظللنا ننتقل وقتاً بينها".

- "كل ذلك، كان يتم دون أن تشكَّ هندُ يوماً ، في خروج زوجهـا ودخوله إلى البيت، في سـلوكه، في ارتياحه النفسيّ أو غموضه؟".

- "كانت تتحفَّز في كل مرة أتأخَّر فيها، لكن لم يكن لديها اندفـاع لمواجهتي، غير أنَّ إهمالها لي ازداد، وباتت أكثرَ إصراراً على عدم إنجاب أطفالٍ مني، أكثر من أي وقت، كانت تتعلَّل في البداية بأنَّ الوقت مـا يزال مبكراً ، وفيما بعد، راحت تأتي بحجج أخرى".

- "أتشعر بالحزن لذلك؟".

- "ربمـا، لكني الآن أقول أن ذلـك، كانت له إيجابيات، أحياناً لا تدرك أنَّ هناك أموراً تشعر بالبؤس لضياعها منك ، ثم

تنتبه في وقت متأخر، إلى أنَّ القدر اختار لك ما هو أفضل".

- "وإلى أي مدى، مضيتَ في تلك العلاقة؟".

- "إلى كل درجة تتخيَّلها، توقَّعْ وستجد أن ما ستتوقعه حدث، غيرَ أني للأسف لم أكتشف أن كل تلك المشاعر التي راحت تبثها لي، والتي تصورت أنها تعوضني عما افتقدته من هند، كانت تقوم بها كأي ممثلة حفظت الدور، ثم راحت تؤديه ببراعة، دون أن يجد المشاهد فيه ثغرة واحدة، تدفعه للشك في الأمر".

- "ماذا ؟ أكانت تمارس خداعاً لك؟".

- "هذا ما حدث، وأوقعني في النهاية ضحية".

- "وأين هند من هذه الحكاية؟".

- "بل قُلْ: وأين ابن عم هند منها ، أين هذا الذي يُدعَى عزت؟".

- "هل قام برسم تلك الحبكة؟".

- "هو الذي وضع الخطة، انتهز حالة الفتور التي باتت عائلة هند تتحدث عن تفاصيلها، وانتقلت الأخبار إليه، قرر تسديد ضربته في هذا التوقيت، وبالطريقة التي لا يمكن معها

لهنـد، إلاَّ أن تتحـرك لإنهاء ارتباطها بي، كانـت اللعبة بارعة، ووقعـتُ أنا بغبـاء في مصيدة نُصِبـتْ لي، الآن كلما أتذكر ما جـرى لا أتصـور أن هناك وصفـاً ينطبق على حالتي، سـوى الغباء، كنت منحتُ إجازة لعقلي، فلم يستطع التفكير بشكل منطقيّ، لم يسْعَ في أي لحظة إلى التشكك في هذه المرأة ولا في حكاياتها وهي تعزف على وتر، تدرك أنه سوف يلامس قلبي، لكني أكرر لك، ابتلعتُ الطعم، تماماً مثل أيِّ سـمكة حمقاء، انقادت إلى حتفها وهي تبتسم في بلاهة".

- "لا تُمسكْ الآن سوطاً لتعاقبَ نفسك، انتهى كل شيء بآلامـه وأفراحه، بأوقاته السـعيدة والمحزنة، نحن نسـتعيد الحكاية لنفهم ما جرى، لا لتجلد نفسـك، ما الذي فعلته هند عندئذٍ؟".

- "أرسـل عزت إليها عبر إحدى صديقاتها، بخبر وموعد اللقـاء الذي تواعدته مع تلك المـرأة، في أحد الفنادق، وكان مـا كان، فوجئت بسـقف الدنيـا ينهار عـلى رأسي في لحظة اشـتعال اللحظة الحميمة، وقفت هند في مواجهتي، بصَمْتٍ كأنه كل الصراخ، سـددت نظرة مرعبة إلى عيني، شعرت كأن رأسي انشـقَّتْ إلى نصفين، ورأيت عندها أرضية الغرفة وهى تهتز من تحتي، تشـققت الجدران، وتسـللت الرائحة عنيفة

إلى أنفي، تسارعت مثل إعصار واتجهت نحوي، أحسست أن الغرق قادم لا محالة، حاولت رفع يدي، أستميحها أن لا تصبَّ غضبها، لم أجد في فمي لساناً يتحرك، ولم أشعر إلا وكل أطرافي معطلة، أصبحت كالمشلول في مكانه، ينتظر قدره الأسود، الموت كان أهون في تلك اللحظة التي كانت أطول من عقد، وأشق على جسدي من الدهس تحت عجلات قطار، لا أعرف كيف تحملت كل هذا الثقل؟ كيف نجوت من إبادة اقتربت مني، ورأيتُ فيها أن الموت الذي كان يترصدني أحمرَ مثل الجحيم، وله أنياب وحش في لحظة هوس، يفتح فمه، استعداداً لالتهام الفريسة مرة واحدة".

- "وهند، ما الذي فعلتْ، ماذا كان رد فعلها غير النظرات الصامتة؟".

- "في أعقاب الذهول، عادتْ إلى تماسكها، ثم اقتربت قليلاً من جسدي المتناثر، اختارتْ جانب الصدر الأيمن، ثم بصقتْ فوقه، وغادرت المكان، دون أن تنطق حرفاً".

- "وأين عزت في هذا الوقت؟".

تنهَّد عميقاً، وسمعتُ صوتاً كالحشرجة يصدر من حنجرته وهو يبتلع ريقه، مددتُ يدى نحوه بكوب الماء، تناوله ورشف

قطـرات قليلة، ثـم واصل وقد بدا عليه الإعيـاء، أكثرَ من أي وقت:

- "في تلك اللحظة، ظهر عزت فجأةً في المكان، نظر إليّ في شـماتة، وقف لبعض الوقت، قبل أن يغادر، ربما ليلحق بهند، عندئـذ، لملمت المرأة التي كانت إلى جواري أغراضَها، وراحتْ تركض إلى خارج المكان، بدَتْ الصورةُ بالنسبة لي أكثرَ وضوحاً، أدركتُ أن مجيء عزت لم يكن مصادفة، ولا كان إيصال موعد اللقـاء وعنوان المـكان إلى هند إلاّ بترتيب منـه، بدتْ هكذا الأمـور لي عـلى الرغم من أني كنت في تلـك اللحظة أتمنّي أن تنشـقَّ الأرض وتبتلعني، لا يوجد أسوأ من واقعة كتلك، يمكن أن يمُرَّ بها رجلٌ في حياته، فضيحة من العيار الثقيل، لا أستطيع الآن تخيل أني تعرضتُ لها يوماً " .

مـع أني كنتُ عزمتُ على التوقـف، إلاّ أن الحكاية بعد أن وصلتْ إلى هذا المنعطف، استحثّتني على مواصلة طرح المزيد من التساؤلات، انتظرتُ حتى تنفَّس عميقاً، رأيتُ وقتها صدره وهو يطلق تنهيدة، يرتفع معها ثم يهبط، قلت:

- "وكيف كانت الخطوة التالية لهند؟".

- "لم أسـتطع رؤيتها في تلـك الليلة، لم تحملني قدماي

للذهــاب إلى المنــزل، بحثتُ عن مكان يأوينــي، وفي الصباح، حــين اتصلتُ على هاتــف المنزل، لأقدم أقصى مــا أقدر عليه من اعتذار، قامت بإغلاقه في وجهي، لحظة أن اســتمعتْ إلى نبرات صوتي، وفى المحاولات الأخرى التي واصلتها، لم يحدث أن ردّت على الرنين، ولما انطلقت إلى المنزل، انسحبت إلى الداخل، رافضة أن تســقط نظرات عينيها عــلىّ، كان الحزن يطل من عينيها في اللحظات العاجلــة التي التقطت خلالها ملامحهما، بــدا الأسى فوق القــدرة على الوصف، كان في تلــك الليلة قد أضافت على عمرها نصف قرن، وحولها إلى كائن مغاير للذي كانتــه، أنا الآن أدرك أكثر مــن أي وقت، أن الأمر لا يمكن احتماله لزوجة".

وجدتني أهــبُّ، بعد أن أصبح كياني مندمجاً معه، في تلك الحكاية، لم أكن أشــعر بنفسي واقفاً خارجها، ربما كان الشعور القديم الذي كنت أحســه حينما كان يسرد على مســامعي أو عــبر خطابه، تطورات علاقتــه بهند، أتذكــر أن اللهفة كانت تختطفني، وأن انتظار متابعة التطورات كان يشعرني بأني أتابع قصة رأيتها في فيلم سينمائي، أو رواية قرأتُها يوماً لأديب شهير، كنتُ شــغوفاً بمعرفة المآل الذي ستصير إليه، تماماً مثلما أجد نفسي وأنا جالس على الطاولة في ذلك المجمع الكندي الضخم،

وهو أمامي يواصل سردَ مـا تبقي من الحكاية، خصوصاً ذلك الجانـب الذي لم أكن قد سـمعته، منـذ أن انقطعتْ أخبارُه عني، سألته وأنا أحاول إظهار أكبر قدر من علامات الدهشة:

- "لا يمكن لزوجة احتـمال ما حدث، وأي زوجة؟ أنت تتحـدث هنا عن من وقفت إلى جانبك بكل ما تملك، وتحدَّتْ الدنيا لأجل الحفاظ على حبها، فكيف انسقْتَ إلى هذه النزوة؟ كيف ذهبتَ في هذا الطريق، دون أن تتوقف لحظة لتفكر في أنك توجه رصاصة إلى قلب من ضحَّت لأجلك؟ كيف اندفعتَ لهذا وأنت تحبُّها، حتى وإنْ كان سباق الحياة اليومي قد أفقدَ الروح بعض الوهج؟".

- "صدقني، لسـتُ أفهم هذا الذي جرى، لا أعرف بأي قوة انسـقتُ إلى هذا الجحيم، ولم أغفر لنفسي، ولن أغفر في أي يوم ما حدث، لكن هذا كان قدري وقدرها".

- "الخطأ ليس قـدراً، لا تحاول إفهامي أنَّ خطيئةً مثل تلـك يمكن أن تبرر تحت أي ظروف، أنـا أتخيل كيف قابلت الطعنة التي سـددت إليها بـكل هذا العنـف، أتخيلها وقد تحطم القلب في لحظة، وتهشـمت أحـلام العمر التي غزلت ثوبهـا، غرزة بعد أخرى، ولا أظن أنَّ جرحاً مثل هذا يمكن أن يندمل في يوم من الأيام".

- "حاولتُ بكل الوسائل أن أقدم إليها اعتذارى، كنتُ أشبَهَ بفأر مذعور، تتساقط الشعيرات من على جسده، فيزداد عرياً، سعيتُ قدر ما استطعتُ لإيصال ندمي، لكنها أوصدتْ الأبواب في وجهي، تركتني أياماً دون أن تردَّ عليّ بكلمة، دون أن تمنحني إيحاءً يشعرني بوجودي في المنزل، انكفأت في غرفة النوم، وراحت تغرق في أحزانها، وأغلقت الباب، مرت أيام عليها في هذا الحال، وعبرت أيام أخرى، دون أن تلوح في الأفق انفراجة، اضطررتُ إلى الابتعاد عن المنزل، حاولتُ أن أبيتَ عدة ليالٍ في الخارج، فربما يساعدها ابتعادي في الخروج من العزلة، غير أني في كل مرة، كنت أعود طامحاً إلى الغفران، كان يدفعني أملٌ خفيٌ أن تستجيب يوماً وتغفر لى زلَّتي، وإن كنتُ على يقين من أنها حتى وإن غفرتْ، فإنَّ الحياة بيننا دخلت في مرحلة الموت الإكلينيكيّ دون تراجع، ومع ذلك لم يكن أمامي إلا السعي لامتصاص أحزانها، مهما كان الثمن الذي عليّ دفعُه، كان الأهم بالنسبة لي أن تخرج من محبس أحزانها، ومن حالة الانتقام التي تعاقب بها نفسها، كأنها تسعى للاقتصاص منها، قبل أن تفكر في الانتقام مني. لا يمكن لي مهما حاولتُ، أن أصف لك، ذلك الإحساس الذي غمرني في تلك الأيام، ليست المسألة مجرد شعور بالذنب، كلمة الذنب ليست دقيقة في مثل تلك الحالة، الأكثر دقة أن أقول الجريمة،

كي يصل المعنى الذي أقصده، نعم إنها جريمة، وبحق من؟ من كانت أكثر البشر الذين تمنيتُ في وقت سابق أن أزهق روحي لأجلها، من تساوت عندى الحياة والموت بسبب رفض أهلها لي، هل تدرك مدى الأسي الذي لا يزال يعتريني، وأنا أستعيد معك، ذلك الخطأ الفادح الذي ارتكبته، هل تدرك ذلك يا عادل؟".

- "وهل توقفت عند هذا الحد؟".

- "ما جرى هو ما كان متوقعاً، على الأقل هيَّأتُ نفسي لأقصى الاحتمالات، كنتُ أدرك من معرفتي بها، أنها لن تتوقف عند تجاهلي، واعتبار كأني لم أكنْ موجوداً في الأصل في حياتها، وليس في المنزل الذي يجمعنا، والذي كنتُ حين أجلس في غرفة الجلوس فيه منتظراً أن تغادر صومعة غرفة النوم، أرى جدرانه وهي تهبط الأرض في كل يوم، كنتُ ألمح كلما ركزت النظر، الكلس وهو يتقشر على أحد الحوائط، والجص وهو يتفتت في بطء، يتجه نحو الأرض، ويتناثر بلا انتظام، وكنت كلما رفعت عينيّ إلى السقف، سرعان ما أعيدهما، ظللت أشعر بأنَّ هناك شيئاً مَّا يتراقص أمام عينيّ، كأنَّ السقف يتجه لارتكاب كارثة فوق رأسي، ظلَّ هذا المشهد يلوح أمام ناظري في كل مرة أجلس فيها في ذلك المكان، تقتلني الوحشة ويذيب

أعصابي الشـعور بكبر الذنب، ويزداد فـوق ذلك أني أصبحتُ عاجزاً عن إيصال الاعتذار لمن أسأتُ إليها.

ظللـتُ على هذا الحال طويلاً ، إلى أن خرجتْ من عزلتها، بعد ثلاثة أسابيعَ بنُهُرِهم ولياليهم، انفتح الباب قليلاً، وقفتْ كأنهـا قادمـة من بلاد الأشـباح، عيناها منتفختـان، ربما من بكاء مكتوم، والشـعر الذي كان في السابق يسرح بدلال فوق الكتفين، بدا منكوشـاً ومعفراً، في مشهد لم يسبق لي أن رأيتُه، وقفـتْ بحزمٍ رغم ما بـدا عليها من إعياء لتقـول: " لتعرفْ أن حياتنـا معاً انتهت، وعليك أن تذهـب اليوم إلى المحكمة وتطلقني، لا أريد أن يتأخر هذا الأمر ليوم إضافيّ".

قالـتْ ذلك ثم عادت إلى عزلتها، وأغلقت الباب، كنت قد وقفـت فور رؤيتي للباب وهو ينفتح، انتظرتُ لحظة انتهائها من الكلام لأتحدث، كان لـديّ ما أقوله، ربما أفلحتُ في تليين قلبها، إن قبلتْ أصلاً باعتذار، غير أنها لم تدَعْ لي فرصة، وسرعان ما كان صوت اصطفاق الباب هو الرد".

مـا كاد ينتهي من آخر جملة، حتـى كان أحد العاملين في المجمع قد تقدم نحونا، انحنى قليلاً في أدب جمّ، وهو يشـير الى المقاعد من حولنـا وهي خاوية تماماً، انتبهنا فجأةً إلى أننا أصبحنـا الوحيدين الباقيين في ذلك المـكان، على الفور وقفنا،

أبلغتُ العامل أسـفي فيما بدا أن "منير"كان يرغب في المزيد من الوقت، قلتُ من باب عدم كسر الخاطر:

- "لنكمل بقية القصة ونحن في طريقنا".

راقتْ له الفكرة، غير أنـه كان يدرك أن التفاصيل لا يمكن سرد كل مـا فيها على مسـافة طريق لا يسـتغرق من لحظة الخـروج من بـاب المجمع إلى مدخل الفنـدق أكثر من عشر دقائق، قلتُ لأسـتردَّ انتباهه، بينما كنا نمضي معاً سـائرين في الشارع شبه الخالي من المارَّة في ذلك الوقت المتأخر:

- "أكمل إذن ما كنت تقول".

- "وهل تتذكر ما كنتُ انتهيت إليه؟".

- "تماماً، أذهبتَ إلى المحكمة، لتطليقها؟".

- "في ذلـك الوقت لم يحدث، لم تقوَ قدماي على حملي إلى هناك ، تشككت في أن تكون للساني القدرة على نطق كلمة الطلاق، سـيكون معناهـا أن حياتي انتهت، تـرددتُ، ورحتُ أُرجِـيءُ الأمر من وقت إلى آخر، وفي كل يوم كانت تخرج من صومعتها لتسـألني عما إذا كنـت أنهيتُ الأمر، كلما قلتُ لها كلاماً لأعتذر، تدرك أنَّ المسـألة لم تُحْسَمْ، فتغلق الباب سريعاً

بغضب وتدخل إلى سـجنها المختـار، دون أن تترك لي الفرصة لإكمال ما كنتُ بدأت قوله.

ظللنـا وقتاً على هذا الحال، لا أتذكر إن كان شـهراً أو أقل قليلاً، كان اليوم الذي يجيء يشـهد تكرار السـيناريو بنفس الترتيـب، إلى أن حدث ما لم أكن أنتظر، انفتح الباب، خرجتْ ترتدي ملابسـها الأنيقة التي كانت أهملتهـا، غادرت البيت دون أن تلقي نظرة نحوي".

*****

الفصل السادس

- " الحماقة تعني إرجاءَ التعبير عن حبنا للذيـن نحبهـم ، أعمارنا اللاهثـة لا تمنحنا في العادة ، تلك الرفاهية ".

كانت ستائر الغرفة قاتمة، لم تستطع شمس الثامنة صباحاً أن تتسلل إلى الداخل، كنتُ قد أبلغت عامل الاستقبال الليلة الماضية بإيقاظي في التاسعة كي أتمكن من اللحاق برحلة الطيران الداخلية التي ستتجه في الواحدة ظهراً إلي مونتريال. فجأةً رنَّ جرس الهاتف النقال، وأيقظني بغتةً، وجدت اسم "منير" ورقم هاتفه، بصعوبة تمالكتُ نفسى، وإن كنتُ في سرِّي وجهتُ له سُبَاباً مُقْذِعاً، لا أفهم ما الذي يريد هذا الذي لم يتركني ليلة الأمس إلا بعد الواحدة صباحاً، حتى كدتُ أترنَّح وأسقط على الأرض ونحن نسير في الشوارع بعد أن أغلق المجمع أبوابه، بعد أن كنَّا آخر الخارجين منه.

بصعوبةٍ، رحتُ أرد عليه، لكنه كان يطلب مني بإلحاح أن أرجئ مغادرتي لتورونتو، قال أن "رشا" تريد التعرف إليّ وأنها قررت أن تعزمني على الغداء هذا اليوم. لم أجد أمامي إلاَّ الاعتذار، طلبتُ منه أن يبلغها امتناني، لكني لم أكدْ أنطق بتلك الكلمة، حتى وجدتُ صوتاً نسائياً يتسلل إلى أذنيّ، من قبل أن يقدمه "منير" لي، عرّفتني بنفسها، وراحت تتحدث بحرارةٍ كأنها على ثقة من أن هذه الطريقة هي التي تصلح

لإقناع من يتشبَّث بالاعتذار.

في النهايــة، وجــدتُ نفسي أجلس في غرفــة الطعام داخل بيت تحيط به حديقــة، في مدينة قريبة من تورونتو، بعد أن هاتفــتُ زوجتي وأخبرتها بتأجيل عودتي ليوم إضافيّ، وبعد أن اتصلــتُ بشركة الطيران لأغيِّر الموعد، مثلما فعلتُ مع الفندق الذي لم أكن قد أنهيتُ الحســاب معه عن الليلتين السابقتين، فقــد كان "منير" قد تمكَّن هو الآخر من إقناعي بالبقاء طيلة هذا اليوم، وكنتُ أنا الآخر في شوق لسماع بقية الحكاية.

كانت ســيِّدة لطيفــة، وكنتُ طيلــة الوقت أقــارن بينها و"هنــد"، في كلِّ كلمــة كانــت تقولها، كانت صــورة "هند" تصعد في ذهنــي، أتصورها وهي تقول نفــس الكلمة، كانت هي الحاضر الغائب عنــدي وأنا جالس هذه المرة مع "منير" وزوجة أخرى له.

في المساء، كنتُ توجهت معه نحو طاولة في داخل كافيه آخر يضمه مجمع بعيد هذه المرة عن الفندق، لم يترك "منير" الفرصة تمر، راح ينتهز الوقت، فور أن أحضرنا كوبي النسكافيه، وبينما كانت يدي تضع ما في الكيس الورقي الصغير من السكر، كان "منير" قد أطلق العنان لنفسه، وراح يحكي :

- "مضتْ ساعات طويلة، كنت أقترب خلالها من الوصول إلى حافة الجنون، دون أن أعرف إلى أي مسار اتجهت، وعندما حلَّ المساء، سمعتُ طرقات عنيفة على باب الشقة، فتحت لأجدها أمامي، ومعها والدها وشقيقها "رؤوف" وابن عمها "عزت"، ثلاثة من الرجال اندفعوا على الفور، ودخلوا المنزل، تجاهلوا وجودي في البداية، كان الغضبُ يبدو على وجوههم، تمنَّيتُ لو لم يكن معهم هذا الفتى الذي أبغضه، والذى كنتُ على قناعة بأنه هو الذي دبَّر لي هذه المكيدة، وأنه تمكن بهذه الفَعْلة من تحويل الهزيمة التي مُنِيَ بها، حين أرغمته "هند" على الابتعاد عنها لتتزوج بي، إلى انتصار في نهاية الأمر، لو كانت "هند" جاءت بأبيها فقط، أو برفقته والشقيق لكان الأمرُ أكثر يُسراً علىّ، غير أني في حضرة هذا الفتى، لم يكن لساني ليطاوعني لأشرح ملابسات الحدث المخزي الذي تورَّطتُ فيه".

كنتُ بكامل حواسي أتابعه، بينما ظلَّتْ ملامح وجهه تتماوج مثل ماء البحر، وهو يقترب من الشاطئ، ثم يعود حسيراً فيما بعد، قلتُ له حين توقف ليلتقط حِفْنةً من الهواء:

- "أكملْ، لم يعد لدينا وقتٌ للتوقف، ما الذي جرى؟".

- "جلسوا دون أن يلتفت أيٌّ منهم نحوي، فجأةً صوَّبوا جميعاً عيوناً غاضبة تجاهي، كانت نظراتُهم، تحمل وعيداً،

تجاهلتُ الأمر، انتظرت حتـى ينطق أحدهم، فأفهم إلى أين سـيتجه الحديث، لم يستمر الصمت طويلاً ، سرعان ما استهلَّ الحاج "نبيل" الـكلام، قال: "لنخرج بالمعروف في هدوء، دون أن ينفضح السر، وتكون العاقبة وخيمة".

حينـما بدأتُ أدعوه ليغفر ما حـدث، واعتبار الأمر خطأ، متعهـداً بعدم تكراره، قفز ابنُ عمها إلى حنجرتي، قاطعاً بقايا حديثي، راح يهدد: "لم نأتِ إلى هنا لسـماع اعتذار عن جريمة ارتكبتهـا، ما نريده هـو إنهاء إجراءات الطـلاق صباح الغد، يكفـي أننا لم نبلغ عنك شرطة الآداب، ولم نسرِّبْ خبر الواقعة المشـينة إلى الجامعة، مادُمْنا فضَّلنا أن نكون كرماءَ ، ولم نفتح نيراناً أخرى عليك، فلترد الجميل على الأقل".

أثـارتْ كلماتُ هذا الفتى أعصابي، لكن ما الذي كان بيدي لأفعله ؟ كنتُ في الموقف الأضعف، ألمح علامات الخذلان على وجـه والد "هند"، بعد أن ظلَّ يعتبرني واحداً من أبنائه، كنت أشـعر من قبل بمدى الوُدّ الذي يُكِنُّه لي، غير أنه هذه المرة، لم يكن هو الرجل الحنون الذي أعرف، تبدل تماماً، راح ينظر لي، مغموراً بمشاعر الاحتقار، وكنتُ أبتلع الإحساس الذي يجلدني بسِيَاطه، وأسعى للحفاظ على ما تبقى عندي من اتزان، مدركاً أنه في أي لحظة سـوف يرى فيها هـذا المدعو "عزت" لحظة

ضعـف مني، فإنه سيسـارع لإمـلاء شروط، مـن المؤكد أنها ستكون شديدة القسوة.

لم تكن لديّ أية مسـاحة للمنـاورة، وكلما كنتُ أنظر إلى "هنـد"، ألمح في صفحة وجهها اسـوداداً لم أعهده، قسَـمَات محتقنة بحزن، فيما يبدو الانكسار عليها، تقف صامتةً، تتابع مـا يجري، بينما عيناها تسرحـان في نقطة واحدة تقترب من مكان قدميها.

سادتْ لحظاتٌ طويلةٌ من الصمت، كنت أرتجيها لتخلصني، ولو لوقت قصير من السِـيَاط التي كنت أحس أياديهم تقبض عليها، وفي عينيْ "هنـد"، يالصعوبة الموقف الذي كنتُ فيه! وأنا أسـاوم من أجل اقتناص لحظات إضافية منها، تكفي لكي أُسـمِعَها اعتذاراتي، وأطلب منها الصفـح، كنتُ كلما سرحتُ بعيـداً، أدرك كـمْ كان الخطأُ فادحاً، وكم كنـتُ أحمقَ حين أدخلتُ قدميّ في قلب الشرك الذي قادتني إليه لحظة حمق.

لم ينتهِ الموقف إلاَّ بعد أن خسرتُ كل شيء، لم تُجْدِ المحاولات التي قمتُ ببذلها لإقناع "هند" بفرصة جديدة,لم يكن الطلبُ مُقنعاً حتى أنهالم تكلِّفْ نفسَـها عنـاءَ الرد، ولعلَّها فيما أظنُّ أغلقتْ في الأصل أذنيها كي لا تسـمع كلمةً مما أقول، كانت في غير الحالات التي عرفتها فيها قبل ذلك، كأنها ليست "هنداً"،

كان الجـرحُ غائـراً، ولعلِّي الآن بعد مرور عشرات السـنوات، ألتمس العذر لها، وأدرك أني لو كنت في نفس موقفها، لفعلتُ مـا هو أكثر، وبالطريقة التي ترد الصاع صاعين إلى من أحدثَ الجرح.

في الصباح التالي، كما أراد الحاج "نبيل"، تمَّ الطلاق، وحين سـعوا لتقييدي بسـداد تعويض، وكتابة الشـقة ومحتوياتها باسـمها، صرخت "هند"، ولعلَّها المرة الوحيدة التي سـمعتُ صوتهـا بعد ما جرى، رفضتْ الحصول على تعويضات، أرادتْ نيل حريتها، دون أن توجه لي الأذى، أو تكبدني خسائرَ إضافية، أدرك الآن كم بدتْ نبيلة، رغم الجراحات التي نالتْها في أعماق روحها، كانت كريمةً معي إلى درجةٍ لم أكُنْ أستحقُّها".

- "وحدث الطلاق في النهاية، وانتهتْ تلك القصة ؟".

- "لم تنتـهِ تماماً، بدأ الجرح ينـزف من جديد، لم أعِشْ أيامي في هدوء بعد أن تركتْ "هند" الجمل بما حمل، وفضلت نيل حريتها، غادرت عشَّـنا، عادتْ إلى بيت أبيها، انشغلتُ أنا في عملي، رحتُ أغرق سـاعات اليوم بأكملها في تفاصيله، كان انغـماسي إلى هذا الحد، هو خير تعويض لي، عمَّا كنتُ أشـعر به من أسى، حاولتُ أن أتنـاسى آلامي، رغم أنها ظلَّت تجتاح كياني طيلة الوقت، غير أنه كان أشدَّ من قدرتي على الاحتمال،

في تلك الأيام القاسـية، كانت صورة "هند" مثبتةً أمام عينيّ، لم يفارقنـي وجهُها ليلاً أو نهاراً، ظلَّتْ كسِـيَاطٍ حارقة تلهب وجهي، وتشـد أذنيّ، تعاتب أحياناً، وتصرخ لتتهمني بالخيانة والنذالة والضعة، تبلغني بندمها على السـنوات التي ضاعت، وهـي تتوهَّم أني كنتُ أبادلها حُبَّاً حقيقياً، ثم تعود في أوقات أخرى لتلومني برفق، معاتبةً انصياعي في لحظة ضعف، لنزقٍ مدمر.

كنـتُ لا أزالُ مُولَعاً بها، وكانت بحـار الندم التي أغرقتُ نفـسي فيها دليلاً على ما رحتُ أشـعر به، ظللتُ طيلة الليالى أتلـوَّى من الألم، وحين يطلع النهار أنطلق إلى الطبيب، فيؤكد لي أنهـا أوهامٌ تجتاحني، لأن الجسـد لا تبـدو عليه عوارض مرض، عندها أدرك أن الروح هى التي تعاني، وأتيقن يوماً بعد يوم، أنه لا شفاءَ لها إلا بنيل الصفح.

فكـرتُ في الذهاب إليها، كدتُ أُجَـنُّ من التفكير، حزمتُ أمـري، ماذا لوفعلتهـا؟ ما الذي سـأخسره أكثر مما خسرت؟ لا أكاد أطيـق الحيـاة في المنزل مـن دون أن أراها فيه، حتى لـو ظلت غاضبة مني، لو لم تحتمـل النظر في وجهي، غير أن لوجودها طعمَ السـحر، ولعطرها رائحة الحنان، لعبقها الذي كنت أستنشـقه في ذرَّات هواء المكان فعله في إنزال السكينة

إلى القلــب، كنت أريد منها العــودة كي يكون للمكان عطره، ويكــون للزمان أمانه، لكن من أين يكون الأمل بعد كل الذي حدث؟

قررتُ بعد أن ظللتُ في هذه المعاناة، أن أســتبدل الشقة بأخــرى، لعــلَّ في الابتعاد عنها ما يخفف من قســوة ســياط العــذاب التي ظلت تجلد ظهري، فعلتُها واخترتُ ســكناً أكثرَ قُربــاً من الجامعة، حرصتُ على أن أزيل ما كان يذكرني بها،لم يعــد لي أبــداً أن أفكر، ولو في إطــار الأحلام، في اســترداد ما ساهمتُ بنفسي في ضياعه، فليكنْ لي أن أجرِّبَ الحياة وحيداً، لعلَّ الأيامَ التي سوف تمر، تكون كفيلةً بتخفيف الأسي.

غــيرَ أن ذلك لم ينفــع، كانت الحالة عصِيَّةً على النســيان، وظلَّتْ "هند" تتبدَّى أمامي كل ليلة، حين أســدل الستائر، أو ألقي بجســدي فوق السرير، أو عندما أجلس لتناول الطعام، كانــتْ تظهر أمامــي فجأةً ، لتُخــرج في كل مرة لي لســانَها، وتتحداني أن أتمكن في أي ســاعة من نســيانها، كانت ملامحُها واثقــةً من أني لن أســتطيع، وكانت محقة، في أن النســيان لم يكن في مقدرتي، تماماً مثلما لم يكن في إمكاني تناسي حقيقة أني أضعتُ ذات يوم، طائري الأشد رقةً، والأكثر بهاءً ".

- "أتعني أنك استسلمتَ لهذه النهاية، وسار كلٌّ منكما

في طريق؟ هل غابت أخبارها عنك؟".

أحنى رأســه قليلاً، بدا هذه المرة أمامي بائساً أكثرَ من أي مرة رأيتُه فيها، كان الحزنُ بادياً علي قسَمَات الوجه، وشعرتُ في تلك اللحظة بأنَّ صوتاً خفيضاً لحشرجة، راحتْ تتسرب من صدره، على الرغم من محاولته لكبحها، نظرتُ نحوه بإشفاق، لكنه كان قد استعاد هدوءه، وراح يُكمل ما بدأ:

- "انقطعــت عني تمامــاً، حتى كدتُ في بعض اللحظات أُصَــابُ بالجنون، أتذكر أني كنتُ أشــتاق إليهــا,لم أدرك مدى المكانة التي احتلتها في حياتي، إلاَّ عندما غادرت العش، عرفتُ بعدها أني لم أبذل أي جهد للمحافظة على الياقوتة التي كانت في اليد، ومن بعد أن طارت، كنت كلما لاح لي الاشــتياق، كثيراً ما أفكر بالسفر إلى الإسماعيلية، أحوم حول منزل أهلها، أظل في الأزقة المحيطة، أتلصَّص مثل سارق متحفز لاقتناص الفرصة، لكنه يعيش في رعب خشــية السقوط ، في كل مرة كان الأمل يحــدوني، أن تخــرج في أي وقت وأراها، كنــت في هذا الفعل مقتنعاً بأن رؤيتها من بعيد، تكفيني لأســتردَّ بعضَ الذي ضاع من روحي، وبعدها أعود من حيثُ أتيت.

شــغلتْني الفكرة، غــير أني ترددتُ في تنفيذهــا، كان لديّ مخــاوفُ مُرعبة، من أن يشــاهدني يوماً أحدٌ مــن أقاربها، أو

يلمحني "عزت"، فتتحول الفضيحة إلى كارثة، كنتُ في اللحظات الأخيرة التي أنوي فيها المغامرة، أكبح جماح النفس، وأنتظر حتى يُنير لي التفكير الهادئ، طريقاً تتحقَّق فيه بُغيتي، دون أن يتَّسع الجرح.

غير أنه في أحد الأيام بلغ الاشتياق عندي أقصى مداه، عزمتُ على التوجه إلى هناك، ضارباً بعرض الحائط كلُّ المحاذير، كان لابد من مغامرة، لكنها هذه المرة، لن تكون قاصرةً على الاختباء في أحد الأزِقَّة انتظاراً لمرورها، بل اقتحام عرين الأسد، قررت في لحظة جنون، الذهاب إلى منزل أهلها، من غير المعقول أن أستسلم هكذا، أن تكون للأقدار كلمتها الأخيرة، دون أن أسعى لتغيير هذا الواقع الذي استغلَّ لحظة خطيئة مربكة، وكبَّل عمري.كان القرارُ جريئاً، لا بل الأدق أحمق ، هل ثمة فارق في مثل حالتي تلك بين الجرأة والحماقة؟

جاء الانطلاقُ إلى هناك، وفى الرأس أخذتْ كل الاحتمالات تدور، لم يكن لديّ يقين، من أنَّ النتيجة الأخيرة، يمكن أن تدفع الراحة إلى القلب المتعب، ولم أكُنْ مُدركاً لكل أبعاد هذا الفعل، غير أنَّ هناك قدراً غامضاً ظلَّ يدفعني لخوض غِمَار التجربة، سمِّهِ ما أردتَ، جنوناً، نزقاً، حماقةً، أو حتى جرأةً لا تليق بمن في مثل عمري، أو وظيفتي، غير أنه كان

لابد في النهاية من فعل ما لا ينبغي فعله، انطلقت في طريقي إلى مجهـول، كنتُ بالفعل أسـتمع إلى نداءاتـه في منطقةٍ مًا مـن الدماغ، كان إلحاحُه يحرضني على عدم تأجيل ما قررت، والاندفاع نحوه دون تأخير، وحين عزمتُ، وضعتُ قدمي على أول الطريق، ومشيت.

مع وصولي إلى بداية الطريق الضيِّق، الذي يؤدي في نهايته إلى بناية ضخمة تقطن فيها عائلة الحاج "نبيل"، وجدت قدميّ فجأةً وكأنَّ شـيئاً مًا ثبَّتهما فوق الأرض، أحسسْتُ بمغناطيس يجذبنـي، ولم أجد لديّ دافعـاً للعصيان، غير أني عندما لمحته يسـير قرب نهاية الشارع متأهباً لدخول بوابة البناية، لم يكن عنـدي وقت كي أضيعـه في الـتردد، قفزتُ مـرة واحدة، ثم أسرعـتُ الخطى حتى لحقت به، ناديته فتوقف، ثم اسـتدار إلى الخلـف، رآني فبدا عليه الذهول، عـاد سريعاً، إلى وضعه السـابق ليكمل طريقه، وقبل أن يقترب مـن مصعد البناية، كنت وصلت إلى مكانه، قلتُ له على الفور: "أريد أن أتحدث معـك يا عمي، إن سـمحتَ لي بدقائق". ارتبـك للحظات، لم يكن يمر في ظنه أنه سوف يراني مجدداً ، منذ أن انتهت الصلة التـي كانـت تجمعني بابنته، لم أعُدْ من يومها أمثِّلُ شـيئاً في حياة تلك الأسرة، اللهم إلاَّ مجرد ذكرى سيئة، تبعث في النفس

المـرارة، أدرك أن هذه هى النتيجة التي آل إليها ذلك الرباط، بعـد أن كان ظني في بداياته أنه سـوف يظل مصدراً للبهجة، يا لهذا التحول من النقيض إلى النقيض، لا شيءَ في هذه الدنيا مضمون، حب ملتهـب يمكن أن يتحول في اللحظة التالية إلى كراهية مسـتعرة، بخطأ أهوج، أو ظن أو دوافع، لا أحد لديه الضـمان من أنها لن تحدث، لا شيء مضمـون في هذا العالم، أؤكد لك، لا شيء مضمون".

- "دعْكَ من هـذا الكلام، وأكملْ ما حدث؟ كيف كان ردُّ فعل والد هند؟".

- "تلعثـم للحظـات، قبل أن يعود ويتماسـك، تحولت لهجته إلى مسـار أشـد صرامة، توقف عند بـاب المصعد، ثم ابتعد خطواتٍ عني قبل أن يقول:

- "ما الذي دفعك للإتيان إلينا، ألم تنتهِ الحكاية؟".

- "أريد وقتاً، أشـعر بالحاجة للتحـدث إليك ، لم أنسَ العطف الذي كنت تُبديه نحوي، ولا أنسى النصائح التي كنت تُسديها إليّ".

- "وعملـتَ أنـتَ بهذه النصائح، ورددتَ لي الحسـنة أضعافاً !".

- "لديك شعورٌ بالمرارة مني، أدرك أن ما حدث لن تقدر مياه البحر على محوه، لكني أطمع في أبُوَّتك التي أشعر بها، أن تسمعني قليلاً ".

- "وما الذي تريده إذن؟".

- "أن نجلس قليلاً ، هل تسمحُ لي؟".

تردَّد الرجل للحظات، لكنه سرعان ما استعاد هدوءه، أشار بيده لي لأدخل إلى باب المصعد، هذه هى اللحظة التي كنتُ أنتظرها، على الرغم من شعوري بخوف داهم منها، لم يكن الحديث مع الحاج "نبيل" هو الذي يجعلني أتوجَّس، بل مواجهة "هند"، كيف لي أن أنظرَ من جديدٍ إلى عينيها اللتين طالما منحتا لي أماناً وثقة؟

دخل الحاج أوَّلاً إلى الشقة، ثم دعاني، واتجه بي إلى غرفة الضيوف، تذكرت أني في وقت سابق كنتُ أدخل إلى هذا المنزل، وأتجه إلى غرفة المعيشة، أتسامر مع أفراد العائلة وأتجرَّع منهم الوُدَّ ، هذه المرة أصبحتُ غريباً، شخصاً غيرَ مرغوبٍ فيه، ياله من تحول!

دعانى الحاج في يأسٍ من يُدرك أن كلَّ ما سوف يقال لا فائدة تُرجَى منه، ولأني يائس فإنه كانتْ عليّ المحاولة، قلتُ:

- " أعلـم أنك لـن تغفر لي ما اقترفـت، جئتُ إليك كي أعتذر، طامحاً في سـعة صدرك، وفي غفـران تلك الخطيئة لي، وقعت في مكيدة، انزلقت إليها بحماقة، لكن أهناك من البشر مـن يمكن له الادعـاء بأنه قادر على صـدِّ الغواية؟ من الذي يزعُـم أنه بلا خطيئة ؟ اعتبر أني واحد من هؤلاء البشر الذين ارتكبـوا خطأ وتعلموا منـه، وأني منذ اللحظة البائسـة التي فقدتُ فيها أجمل مـا في عمري، تعلمت الدرس، وأدركت أن ما جرى ما كان له أن يحدث أبداً.

- "ومـا قيمـة ذلك الآن ، ما الـذي يعنيك في صفحي، أو خيبـة أملي؟ ألم ننتهِ من كل الأمور، ألم تذهبْ في طريقك، ونحن اخترنا لأنفسـنا طريقاً مغايراً ؟ ما الذي تسعى له الآن من مجيئك؟".

- "الصفح، وغفران ما جرى".

- "اللـه هـو الذي يغفر للخطّائين إن شـاء ، لا تطلب الغفران من بشر لا يملكون لأنفسهم شيئاً ، هداكَ الله يا بنيّ، وأصلح أحوالك".

- "إذن لم تعُدْ تشـعُر نحوي بكراهية، لم تحتقر ما كان مني؟".

- "قلـتُ لكَ أن هذا لم يعد يعنينـى، وأقولها لك الآن، نجحت بالفعل في نسيان هذا التصرف السيء، نسيته لكي تسير الحياة في طريقها، ولأن العقل الباطن لدينا يتمنَّى لو يستطيع طرد الذكريـات الجارحة، وما حدث بـكل المقاييس، لم يكن جارحاً فقط، بل كان قاتلاً".

- "هل لي أن أطمحَ في فرصة لأقدم الاعتذار لهند؟".

- "سـوف أبلغها أنك جئتَ إلى هنا لتعتذر، أليس هذا ما تريد؟".

- "لـو كان الأمرُ لا يُسـبِّب لكـم إزعاجـاً، أودُّ إبلاغَها بالاعتذار وجهاً لوجه، أرجو أن تمنحني الفرصة، لأسـتريح مما أعاني".

- "ما الذي تسـعى إليه عـلى وجه التحديد؟ "هند" لم يعد يعنيهـا اعتذارٌ منك ولا من غيرك، انتهـى الأمر وانتهينا، لماذا تريد إعادة تلك السـيرة من جديـد؟ ألاَ تكفي كلُّ الآلام التي سـبَّبتها لهـا؟ ألا يكفي ما جرى؟ اذهـبْ في طريقك يا بنـيّ وانسَ الأمر، انسَ هذا البيت و"هند"، وابدأ حياة أخرى بالطريقة التي تختارها، ابدأها بعيداً عنا، وعِشْ وفق ما يحلو لك".

- "أعطني هذه الفرصة، ربما غفرت لي، أرجو أن تساعدني، الحيـاة أصبحت لا تُطاق، أعلم أنَّ ما جرى كان قاسـياً، لكنِّي أعلم أيضاً طيبة قلب "هند"، وتساميها عن الأخطاء، أرجو أن تساعدني، أنا بحاجة للحديث معها، سيكون الكلام في حضورك، وبعدَها سوف أنفذ أي رغبة لها".

- "هذا مستحيل، بل جنون، أنت لا تدري أي شيء، أبعِدْ هذا الذي يدور في رأسـك تماماً، كل الأمـور تغيرت، ألا تدرك ذلك؟

مبـدأ التعاطـى مع "هنـد"، كان مرفوضاً مـن الأب منذ البداية، رأيتُ قسَمَات وجهه وهي تحتقن بلون قاتم، تصورت وقتها أن كل الدمـاء التي اختزنها الجسـد النحيل، اندفعت مرة واحدة، واكتظَّتْ شراييْنُه الخفية أسـفل جلد الوجه، بدا أمرُ لقائها بالنسبة لي عَصِيّاً، وإنْ كنتُ ازدَدْتُ في تلك اللحظة إصراراً على عدم الخروج دون رؤيتها، أبلغتُ الأب بذلك فأزبد وأرغي، تغيرت اللهجة التـي كان قابلني بها للتوِّ، لكن ما رآه من عزم، دفعه للخروج والعودة بعد دقائق، طلب مني أتحلَّى ببعـض العقل، قال أنه ما كان يظـنُّ يوماً أن تصل الأمور إلى هـذه الدرجة، فالرجال دائماً يصادفـون مواقف عصيبة، لكن تصرفاتهـم حيالها لابد أن تتحـلى بالحكمـة، لم أصمُتْ إزاء

نصائحه المغلفة بتوبيخ خفيّ، أبلغته أن لا مجالَ للخروج ، إلا بالحديث معهـا، كان تصرفاً مجنوناً، أعرف ما يدور في ذهنك الآن، لعلـك يا "عادل" تتهمنـي الآن بالجنون، ليكُنْ ربما كان مثلما ترى، لكنَّ شيئاً مَّا ظلَّ بالنسبة لي غامضاً، هو الذي كان يقـودني إلى هـذا الفعل، صدِّقْني لو كنـتَ في الحالة التي أنا عليها الآن وبعد هذا العمر، ما كنتَ لجأتَ إلى هذا، كما سبق أن قلتُ لك، كنتُ في تلك الأيام كالسائر في نومه، أو النائم في سـيره، لا أعرف أي حماقة كانت هي التي تقودني، وتدفع بي إلى ما لا أعرف بداياته من النهايات.

- "لم تكـن هذه عاداتـك، كنتَ حسَّاسـاً ربما بطريقة مبالغ فيها، فما الذي جرى لك؟".

- "لا أعرف، كل ما عرفته أنت عني قبل أن أقع في حب "هند"، صار مختلفاً فيما بعد، لم أعُدْ ذلك الخجول ، الشـديد الحياء، الصامت الحالم".

ابتسم في مرارة وهو يستطرد:

- "لم أعُدْ ذلك الذي يهيم في عالم "عبد الحليم حافظ"، حلمـتُ مرات أن أكـون مُطرباً، لكنَّ أحداً لم يسـمعني، لأن الناس تعشـق الطرب، وتهاجم المطرب، تفرح بالرقص، ولكنها

تُهين الراقص، هل تتذكر كم كنتُ مهووساً بأغاني عبد الحليم؟ كنــتُ أعتقد أن الحب الذي يردده في أغنياته، كائنٌ يعيش في الواقع، وعلينا أن نتعايش معه".

- "وهل تبدَّل الأمــر بعد وقوعك في حب "هند"، تغيَّر الفتى الحالم فيك، هكذا مرة واحدة؟".

- "كل أحــوال الطقس العاطفيّ كنت أتقلَّبُ فيها طيلة اليــوم، بين شــعور بالبهجة، ولحظات مــن الغضب والعتاب والقطيعــة، كان مــا يدور بيننــا أقرب لما يجــري بين القطط والفــئران، ألمْ تصِفْ أم كلثوم الحــب بأنه وصال ودلال ورضا وخصام، هذا ما كان يحدث معنا، وهو ما كان يغمرنا في بعض الأوقات بمشاعر الانتشاء".

- "لا تبتعد بالموضوع، قل لي ما الذي جرى، حين عزمتَ على مقابلة هند، هل وافقتْ؟".

- "لم تمــر دقائق على عودة أبيها، مشــدِّداً على ضرورة الإقلاع عن هذه الفكرة، ويؤكد أنَّ ابنته طوتْ صفحة علاقتنا، وأنه باتَ عليّ منذ ساعة الانفصال أن أمتنعَ عن أيِّ تصرف قد يتســبَّب في إضافة جراح جديدة لمن كانت وقفتْ إلى جانبي، فخذلتُها وحطمت في عينيها ثقتها بي".

وصلتْ الرسالة واضحة، وحين هممتُ بالانصراف، وأنا أجُرُّ أذيـال خيبة الأمل، فُوجِئْتُ بباب غرفة الضيوف ينفتح فجأة، وتدخل "هند"، كان وجهُها قد صار أفضلَ مما كان عليه خلال الوقت الذي كانت تحبس فيه نفسـها في غرفة النوم، شعرتُ أن القلب يتقافز داخل قفص الصدر، تصبَّب العرق كالنزيف من مسـام الجلد، شـعرت أنَّ نهراً من ماء يغلي ينسكب من فوهة إبريـق، ارتعش الجسـد واجتاحتْني أعـراض الحمّى، وحاولت الوقوف غيرَ أن القدمين لم تطاوعاني، ما الذي يحدث معـي حين يكون هناك ما يتعلـق بهند؟ تحاملتُ على نفسي وارتكزتُ بالساعد على المقعد المجاور، بينما كانت هي واقفةً في شـموخ، ترمقني بنظراتٍ فيهـا كلُّ أمارات التحدِّي،لم تكن في رقة المرأة التي عرفت، بل القسـوة التي امتزج فيها كل ما في الكون من غضب، تخيلتها تسدد نصل سيف منتقم نحوي، وتـكاد تفتـك بي، تمالكت، مددتُ يـدي لأصافحها، تجاهلتْ الأمر، سـحبت اليد خائبة، وأدركت أنَّ هكذا بداية، ليس من المحتمل مهما حاولت أن تنتهي بخاتمة سـعيدة، وعلى الرغم من ذلك الانطباع الذي اجتاحنـي، والذى كان الحاج "نبيل" يتابعه من مقعده، تغاضيتُ عن إبداء الدهشة، واصلتُ رسم ابتسـامة على الوجه، كانت تقبع عند المسافة الواقعة ما بين الانكسار والبهجة.

ظلَّتْ على هذا الوضع لحظات، كان الوقت يمر عليّ، أطول مــن حقب، ولم يكن بيدي والحال هكــذا، إلاَّ أن أتحلَّى بصبر يفـوق ما احتمله أيوب حين ابتــلي، تبدلت حالتي بعد مرور الدقائق بإيقاعها المتطاول، امتــلأ الصدر بالهواجس، واحترتُ فيما يمكن أن يكون عليــه قراري، هل أنتظر حتى تنتهي من هجــوم البصر المباغت، فربما ســارت الأمور بعده إلى انفراج؟ أو ألملم نفسى وأختصر المسافة، مغادراً المكان فأتجنب مهانة من المحتمل أن تكون أعدَّتْها لي؟ تضاربتْ التوقعات في رأسي، حتى شعرت به ثقيلاً، أكثر من كل المرات، كأنه في هذا الوقت الطويــل وهى تقف في اتجاهى متحديــة، بات يحمل هموم الكون بأجمعه، وكأني أشــعر به مســتنجداً، أن أحســم أمري بالخروج من الشرنقة، فليس هناك ســوى الجحيم ينتظر من يندفعون نحو الجنون.

تقدمتْ هي خطوتين، جلســت عــلى المقعد الذي وجدته في مواجهتي، دون أن تتوقف عن تسديد نظرتها المتحدية إلى وجهي:

- "ألا يكفــي ما حــدث، أهناك عذابــات أخرى لازلت تحتفظ بها لأجلي؟".

- "لم أقصد يوماً أن.......".

لم تتركني أكمل الجملة، انطلقتْ على الفور لتقاطعني:

- "لا أريد الآن سماع أيِّ كلمة ، عليك أنتَ أن تسمعني جيداً، دون أن تعقب، أن تفهم ما سأقوله، مادُمْتَ لم تستوعبْ الأمر حتى الآن، هناك حقيقة واضحة، كان ينبغي أن تدركها، تعني أنه لم يعد هناك ما يربطني بك، وإن كنتَ تريد الحفاظ على مـا كان بيننا، فلتدعْني أعيـش في هدوء، ما حدث منك أجهدني، وحطم كل بهجة كانت لي في الحياة، لا أريد أن تعود من جديد، فتذكرني بالذي جرى، إن كانت لديك ذكرى طيبة، فلتتركني أعيش ، في سكينة ما سيتبقى لي من عمر".

- "جئتُ أكفر عن ذنبي، لأؤكد لك ندمي على....."

اندفعتْ هذه المرة لتوقفني، قالتْ بلهجة حاسـمة، ذات نبرة عالية:

- "لم أعد في حاجة لسماع هذا الكلام، لم يعد يعنيني أن تندم أو لا، ما جَنَتْهُ خيانتُك عليّ أكبر من قدرتي على النسيان، ستظل تلك الخطيئة بيني وبينك، هل فهمت؟ هذا هو آخر ما لديّ في هذا الموضوع، أرجو أن لا أراك هنا أو في أي مكانٍ آخرَ مجدداً، دعْني وشـأني، واذهبْ أنت وعِـشْ حياتك بالطريقة التـي ترضاهـا، ولا تفكر في أي يوم أنني سـوف أصفح عمَّن

غرس السكين في عمق شراييني".

قالت قولتها، وانسحبت من المكان، أغلقت باب الغرفة خلفها، وتركتني مذهولاً، وقف الحاج "نبيل"، واتجه نحوي، ربَّت على كتفي ثم اقتادني دون أن يعقب بكلمة، إلى باب الشقة، مدَّ يدَه مصافحاً، لامستُها سريعاً دون أدرك ما الذي أفعله، وجدتُ قدميّ تقوداني إلى باب المصعد، في ظل هذا الارتباك الذي أصاب مفاصلي، وضعتُ يدي على الغلاف الرخاميّ، رحتُ أتساند إليه، كي لا أهوى على بلاط الأرضية اللامع، جهز القدر لي مفاجأة أخرى في اللحظة التي كنت أنتظرُ فيها المصعد، حين وصل وانفتح بابه، خرج منه "عزت"، هو نفسه، ابن عمها الحاج حسين، ما أن لمحني، حتى رمقني بنظرة رأيتُ في تسديدتها جحيماً من لهب، تسلَّل المعنى الذي أراده في مسام جسدي، وبعث القلق في كياني، بعدها توقف، ثم استدار من جديد، ورمقني بنظرة أخرى حارقة، لكنها كانت طويلة، ثبَّت عينيه نحوي، ليتأكَّد من أن هذا الذي يراه، هو أنا، لعلَّها مثَّلتْ له صدمة في الوهلة الأولى، وربما دار في ذهنه مجموعة من التساؤلات المحيرة، أو ربما غيظٌ مكتومٌ، توقعتُ أن يتطور الأمر، وأن تصدُرَ منه تصرفات عدائية تجاهي، لكن ذلك لم يحدث، غير أنه من المؤكد، أنَّ توقفَه وإعادتَه التحديقَ

في ملامح وجهي، أتاحتْ له أن يقرأ الألم الذي ارتســم، والذي لا يمكــن أن تكتب حروفه، على تعابير الوجه، إلاَّ عندما يكون الفؤادُ مكلوماً.

*****

الفصل السابع

- "كلّما ازداد الظـلام، اتّجهت العيون إلى الأعلى ، وبحثتْ عـن أيّ خيط خافت ، قد يدلُّ عـلى أنّ هناك في الأفق البعيد ، ثمّة نجمة تنتظر الوقت المناسب لتطل".

قبل أن يخطو نحو باب الشـقة التي تقطنها عائلة عمه، سدَّد "عزت" لي في النهاية، نظرة بها من السخرية قدر ما فيها مـن التحذير، لم يكن لى أن أظل في مكانى أنتظر المصعد الذي كان قد تمَّ سـحبه قبل أن ألحق به، فضلت الإسراع بالابتعاد فالباب قـد يفتح في أي وقت، رحتُ أهبـط على الدرج كأني كنت أخوض جحيماً، تسلخ نيرانه جلد الجسد، وتنحشر شرارته القاتلة في بقايا كبدي.

يا الله، كيف اسـتطعتُ الوصـول في تلك الليلة إلى منزلي؟ كيف مرَّت عليّ تلك الساعات أصلاً؟ وكيف تمكنت من تجاوز المحنة التي ألقيت نفسي في أتونها، على الرغم من أنه لم يكن لديّ أدنى إشـارة، تُلمِّح إلى وجود نسبة ولو أقل من واحد في المئة لنجاح محتمل؟

مرة أخرى تقودني الحماقة إلى التخبط، فأطيعها وأسير مثل أعمى، مأخوذ في ظلامه بصوت خادع، وشديد المراوغة ، والآن بدأت التسـاؤلات الأكثر مرارة تطـل في الذهن، تكاد تدفعني إلى جنـون حقيقيّ، أما كان يكفيني ما حدث، من رفض قاطع لإعـادة المياه إلى مجاريها؟ أما كان يكفـي هذا الإصرار الذي

أخبرتني به "هند" بوضوح على التوقف عن السير في طريق الأمل؟ أما كان يكفي حطام القلب المتناثر عند باب شقة عائلتها، كي يزيد الطين بلة، هذا الفتى الذي رتب لتحطيم حياتي؟ أيكون هو الذي حصد ثمار فعلته الدنيئة؟ أيكون خطبها؟ وتكون غيرتْ هي من موقفها تجاهه، بعد أن باتتْ على قناعة من أنَّ الحبيب الذي باعتْ ابنَ عمها لأجله، كان هو الذي خانها وحطم قلبها، وردَّ إليها ثمن إخلاصها خيانة مقيتة؟

- "وإلى أين أوصلتك تلك التساؤلات؟ هل باتَ لديك الدليلُ على أنَّها قبلت بالارتباط من ابن عمها؟".

- "في تلك الأيام كان لديّ هذا الهاجس، ولعلِّي بسببه ظللتُ أعيش في معاناة حقيقية، ومع أني كنت أقول لنفسي دعْكَ من كل هذا الآن، عِشْ حياتك، بعد أن تطوى صفحات ذلك الكتاب بحلوها ومرها، لكن كيف لي أن أتمكن من هذا، وأنا أعيش في نفس البلدة التي شهدت تفاصيل تطور قصتنا؟ وكيف لي وأنا أقوم بالعمل في نفس الكلية التي كلما رأيت أحد مدرجاتها، أوحتى ساحاتها، أتذكر موقفاً لي هناك مع "هند"، أو كلمة قلتُها لها أو قالتها هي ؟ ذكريات الأمكنة تحاصرني، وتواصل مطاردتي كلما مررتُ ولو بالمصادفة عليها، فكيف لي أن أنسى وأنا معتقل في هذا المكان؟ وهو نفس

المكان الذي كنتُ أحكي لهند دون قصد، ما كنت أسمعه فيه، في بدايات الزواج كانت الأحـوال تتغير في البلد، الغضب راح يحـل رويداً محلَّ الرضا، وخناق النـاس كان يضيق مع مرور الأيام، في ذلك المكان كنت أسـمع بشراً يشتكون، طيلة الوقت ينقلون تبرُّمَهم لي، وأنا بدوري أنقل تلك الحالة البائسة لهند، كيف يمكن للإنسان أن يبتهج وسط بشر يشعرون طيلة الوقت أن ياقـات قمصانهم ضيقة، على الرغم من أنهم لم يكونوا قد قاموا بإغلاق الأزرار؟

فكرتُ في الابتعاد عن المكان، أن أسعى للخروج من إساره، ولـو لمدة عام، ربمـا كان الابتعادُ في حالتـي علاجاً ، فقد كان هنـاك في داخل المكاتب بـشرٌ لايكفُّون عن ترديـدِ أحاديثَ سـاخطةٍ على الأحوال، وكيف صارت متعبة، ولايكفون ليلاً أو نهاراً عن لعن الأخلاق التي انهارت، وسلوك الناس الذي أصبح عدوانياً، لكنهم يبدأون المحاضرات عادةً بتوجيه الثناء للقيادة الحكيمة، وحين أسألهم، كانوا يبررون الأمر، بتمشية الحال !

وأنا في هذا الحال، ظلَّ هناك ما كان يغلي كالماء في داخلي، الأمر الذي جعلني لا أستطيع النوم كالبشر، لا ممارسة الحياة بهناء، ذلك هو التوصل لإجابة على سؤال، هل أصبحت "هند" عـلى ارتباط بذلك الذي يُدعَى "عزت"؟ أم أنها فضَّلت تمضية بقية العمر دون قرين؟

لســتُ أدري هذه المرة أيضاً، ما الذي دفعني لممارسة مثل تلك اللعبة الصبيانية؟ ما هذا الجنون الذي بات يشـدني إليه، ويسـتنزف أوقاتي وأعصابي؟ ما الذي يهمني إن تزوجتْ أو لم تتزوج، مادامتْ حسمت أمرها وقررت أن لا عودة لنا في منزل واحـد؟ ما الذي يهمني أن تتزوج عزت، أو غيره؟ لماذا أشـغل نفسي بها؟ ولمـاذا تظل عقدة الذنب تطاردني وحدي وتنغص عليّ حياتي، وتخطفني لأظل أسيراً لمشيئتها بقية العمر؟

كانت الأسـئلة تحطـم ما بقى من أعصـابي، وهى تلكزني بطرف العصا، تسـعى لصبِّ آنية كبيرة مـن الماء البارد فوق رأسي كي أسـتفيق من غفـوةٍ سرقتْني، وجعلتْنـي مجرد عبد بائس ليس له هدف إلا السير خلف نزقها".

- "وهل اسـتطعتَ في النهايـة أن تتخلَّص من مطاردة تلك العقدة؟".

- "الأمـر لم يكن سـهلاً، وجدتُ نفـسي في النهاية أمام خيـار صعب، وما كان أمامي إلا اختيارُه، بعد أن رأيتُ نفسي أنزلق نحو منحدر، ليس منه نجاة، إن اسـتمرَّت الأمور تسـير في نفس الطريق، قررت أن أتناسـاها، وأن أبدأ حياتي بالبحث عـن زوجة، أعتبر أن ما جرى لي في البداية، أحد الدروس التي يتم وضعها في طريق بعض الأشخاص كي يتعلموا من قسوتها، وكنـت بالفعل قد جاهـدت، حتى أخرج من تلـك التجربة

المريرة بتعلم ما كان يجب أن أتعلمه منذ البداية، من قبل أن تغشى العينان، وتعمى البصيرة، ولكني في النهاية، استخلصت الـدرس، قررت عـدم ارتهان النفس لحـادث، حتى وإن كان قاسـياً، إلاّ أنه يظل حادثاً، ليسـت تتوقـف عنده الحياة، ولا يجب أن تمنحه الفرصة ليكون نهاية الدنيا في نظرنا، ونظر من يشاركوننا العيش".

- "عندئذ، انتهت حكاية "هند" تماماً، أليس كذلك؟".

- "لا، لم تنتهِ، كان هناك فصل آخر".

- "فصـل آخر مـع من؟ هنـد؟ أيُّ جنون هـذا الذي تقوله؟".

- "ليس جنوناً في أي حال، لم تكن هند امرأة عادية مرت في حيـاتي، أتذكر حين كُنَّا معاً، أنها حـين تنظر إليّ في اللحظة التي أشعر أني في حاجة ماسَّة لتلك النظرة، نظرة تحمل معاني كثيرة، أكبر مـن كل المعاني التي نقولها عندما تنظر إلينا أنثى مغوية، نظرة كنت أشـعر معها بشبع، حتى أنني من بعدها، أتمنَّى لو أنها اكتفتْ، ولم تمد أصابعها لتداعب شـعر صدري، كنـت أظنُّ أنَّ النظرة تشـبعني حقاً، لكن حين يبدأ التلامس، كنتُ أتأكد من أني كنتُ واهماً".

- "وما الذي جعل الأمور تتغير إذن؟".

- "لأن هنـاك أموراً- سـواءً أصدَّقنـا أم لم نصدق- تقعُ بالصدفـة، هناك ما لا يكون المـرء قد خطط له، أو حتى فكر فيـه، يجده فجأة ودون سـابق ترتيـب، في مواجهته، عندئذ فإنَّ كل ما كنتَ تخطط من أجله، وتسـعى إليه، يتخذ وجهة أخـرى، ألم أقل لك أنه القدر، الـذي ظل يتعقب كل تفاصيل حيـاتي ، وفي كافة المراحل التي مرَّت ؟ ولو سردت لك تفاصيل صغيرة من قصة العمر، لاندهشت، لكني أصبحت على يقين، من أن ما يحدث لي في الكثير منه، يتمُّ كفعل قدريّ، أكثر منه مجرد مبادرة فردية، تصيب أو تفشل في النهاية".

- "هل التقيتها؟".

- "الأمرُ لم يتم هكذا بين ليلة وضُحاها، عليك أن تلتقط أنفاسـك أوَّلاً، كي أستطيع اسـتدعاء ذلك الحدث من الذاكرة، هنـاك أمـور أخرى مغايـرة اختلطت به، في نفـس التوقيت تقريباً، وهي التي ساهمتْ في تحديد أبعاد ما قد جرى".

- "أتتحدثُ بالألغاز الآن؟ لم أفهم شيئاً مما قلت".

- "عليـك التحـلِّي بالصـبر، الموضوع يحتـاج منا ذلك، ما علينا إذن، فالأهم هـو أني انطلقت هذه المرة بإصرار أكبر على الـزواج من أخـرى، أقدمتُ على ذلك بعد عدة أشـهر، تيقنـتُ خلالها من أنه لم يعد هنـاك أيُّ مجال لإعادة الحياة

إلى طبيعتهـا مع "هند"، بحثت في نفـس المدينة عمن يمكن أن أكـون ميَّالاً إليها، غير أن التجربة التـي مررتُ بها وقفت في وجهـي بالمرصاد، كنتُ قد أصبحـت على قناعة بأن الحب وحـده، ليس كافياً لبناء عش زوجية مسـتقر، وقابل للصمود أمام عواصف هوجاء .

عندئـذٍ قررت أن ألجـأ إلى أهلي هذه المـرة، أريد الزواج بواحدة تشاركني حياة عملية مثلما يعيش معظم البشر، دون أن تعمينا العواطف عـن جوانب الحياة الأخرى اللازمة لبناء بيت هادىء.

لم يسـتغرق الأمر وقتاً، كانت "رشا" التي رأيتها في المطار، زواج تقليدي من ذلك النوع الذي طالما سـخرنا منه، واعتبرنا أنه من بقايا العصور الماضية، لم أكن سـمعتُ باسـمها يوماً، على الرغم من أنها من مسقط رأسي، لم أرَها من قبل أن أتقدم لوالدها طالباً يدَها، مرَّ الأمر بيسر، وبعد عدة لقاءات قصيرة، لم أشعر تجاهها لا بحب ولا نفور، كان الأمر في رأيي الآن، أشبهَ بمن يـؤدي واجباً ليس أمامه إلاَّ أن يؤديـه، ليس يهم عندي مـا تقوله النظريات التي تُسـهِبُ كثـيراً في شرح آلية القبول بالطرف الآخر، فالمهم أني وإن تزوجتُ على الطريقة التقليدية إلاَّ أنني الآن أشعر بحب حقيقيّ تجاه "رشا"، لا تسألْني كيف حدث هذا ، فأنا شخصيَّاً لا أملك لذلك تفسيراً، غير التأكد بأني

معها أشـعر بتكامل، ما ينقصني كنتُ أراه لديها، وما لم تكن قد أهَّلَتْ نفسها له، أُكْمِلُه عندها، هل تعرف معنى أن يُكمِلَ الزوجان النقص في بعضهما؟".

- "عدا هـذا النقص الذي تتكاملان فيـه، المؤكد أن في الحياة اليوميـة تفاصيلَ هائلةً، كفيلـةً بإظهار التباين، كيف سـارتْ الحيـاة بينكما، وأنتـما تقتربان من ربـع القرن على الزواج؟".

- "لا أريـد أن أصوِّر الأمور عـلى أنها وردية تماماً، لكن الطريقة التي سارتْ بها زيجتنا، كانتْ أقلَّ توتراً، هل تصدق، أن الـزواج الذي تم مع هند بعد علاقة حب، كان أشـدَّ إثارةً للأعصاب، وأكثرَ في عدد المشكلات التي اندلعت كل يوم بيننا، مـما حدث مع زواجـي التقليدي؟ كنا، أنا و"رشـا"، قد بدأنا التعـارف الحقيقيّ بعد الزواج، ولأني كنـتُ راغباً في تعويض ما فاتنـي، وكنتُ أيضاً خارجاً للتوِّ مـن كارثة هائلة أنهكتْني وكادتْ تحطم بقاياي، فإن "رشـا" كانت عازمةً على تأسـيس عش حقيقيّ قادر على الاستمرار، وهي تعلم أني مررتُ بتجربة محزنة، وكانت عبرَ كل تصرفاتها تسـعى لتقديم الوجه الآخر مـن الزواج، إلى الوصول بي إلى درجة نسـيان ما حدث، أطرد الآلام وأشـفى نهائياً من جراحاتها، ثـم أجد الراحة الحقيقية والأمان معها، بدا حنانُها أكبرَ من اتساع الكون، يغمرني فأشعر

بالسـكينة، أتدرى يا صديقي معنى أن يشعر المرء بالسكينة؟ وممـن؟ من زوجته التي تُقاسِـمُه كلَّ تفاصيـل الحياة، هل تدرك معنى أن تثقَ في أنَّ من يقاسـمك هذه الحياة، يبادلك الإخلاص، وتجد أنَّ بينكما حواراً يتجدَّد، تحكى لها وتحكى لك، تكونان مثل توأمين انقسـما إلى رجل وامرأة، ولكن أي امرأة، ليست بالتأكيد هى تلك التي تراوغها وتراوغك، تهرب من قول الحقيقة لها، وتجاهد من أجل أن تحافظ على شـعرة معاوية معها، ولسـتَ في كل الأحوال تضمن أن تسـتمر حياتك معها إلى النهايـة، أنا الآن أدرك، بل أنا واثـقٌ مما وصلتُ إليه، من أنَّ الحب ليس هو الضمانَ الحقيقىَّ لقيام أي علاقة بين رجل وامرأة، ولا حتى ضمان اسـتمرارها، أنا أقـول هذا الآن، بعد مـا مرَّ بي، ربما لو كنتَ أنت الـذي قلته لي، وأنا أعيش الحالة الأولى، مـا كنت أصـدق، كنت وقتها سـأتهمك بأنك صاحب أفـكار متخلفة، وربمـا قاطعتك واعتبرتُ أنك معقدٌ نفسـياً، وتنتمى إلى أشد أنواع البشر من أصحاب النوازع الشريرة .

راحتْ "رشـا" تبذل جهداً هائـلاً، في محو الأسى الذي كان يسـكنني ، بعد وقتٍ من الأمان، رحـتُ أقصُّ عليها بعضَ ما جرى معي خـلال علاقتي بهند، باتتْ تعلـم بكل التفاصيل، حتـى الحماقات التي جـرَتْ مني، لم أسـتطعْ إخفاءَها، رغم مخاوفي من أن تساهمَ في تراجع تعاطفها معي، كان هناك ما يجعلني أشـعر باطمئنان إليها، كأنها أصبحتْ أُمّاً لي لا زوجة،

بل حتـى الأمهات لا يحكي لهـن الرجال في العـادة تفاصيل حياتهم، هناك جزء صغير للغاية في داخل رأس كل رجل، أشبه بخزانة دقيقة، يخفي فيها بعضَ أسراره ثم يغلقها تماماً ، إلي أن يغـادر الدنيا بأسرارهم، غيرَ أني لم أكنْ واحداً من العيِّنة، فكل ما حاولتُ إخفاءه في القلب، أظهرَه اللسـان، لم يكن لي أسرارٌ قابلة للكتمان، ومع البشر الذين يلوح لي منهم ودٌّ، كان لساني ينزلـق هكـذا، وكأني أريد أن يكون هناك من يسـاعدني على تطهـير روحي من أدرانها، كانت "رشـا" من هذا النوع الذي منحني إحساسـاً بالود، حتى أن الدنيـا في عيني، باتتْ تعني لي هذه الزوجة، صارتْ لي بيتاً وأمّاً وحبيبةً وتوأماً للروح، هل تدرك معنى أن تكون شريكةُ عمرك، توأماً للروح؟".

- "تبدو لي الآن، وكأنك تمتلك روح طفل في حاجة دائمة إلى حنان".

- "لعلَّـكَ أصبْتَ الحقيقة، هذا الحنان هو الذي يأسرني، هو كلمة السر التي ينفتح أمامها القلب عندي، ويستسلم في سعادة".

- "وألمْ تكنْ هند تدرك أن هذا هو المفتاح؟ ".

- "للأسـف لم تـدرك، كانت صغيرة مُدلَّلـة، ترغب كل لحظـات في تبادل كلـمات الغـرام، اعتـبرتْ أن ذلك يكفى

لاستمرار الحياة بين الحبيبين، وحتى أكون دقيقاً، فإنها لم تكن وحدهـا في هذا الفهم، كنتُ أبادلها هذا الاعتقاد، فلما خفَتَ الحـب اندهشـنا، لم نقم بمحاولات للتواءم مـع الواقع الذي اختلـف عما قبل الزواج، اعتقدنا خطأ- مثلما يتوهَّم كثيرون- أنَّ الزواج هو مجرد طريقة لضخ الدماء في شرايين الحب، وأنه امتدادٌ طبيعـيّ، وجسر مشروع لعلاقة بـدأت وفق المعادلة المتعارف عليها بين عاشـقين، وآن لها أن تتواصل وفق نَسَـقٍ آخـر، لكننا كنا بالتأكيد مخطئين، وحـين لم يتحول الحب إلى لهيب يجرف كل التفاصيل، كان من الطبيعيّ أن تأتي اللحظة التي ينهار فيها، عندئذٍ جاء الملل، وبدأ الضمور يسرى في جسد العلاقـة، وبعد وقتٍ لم يكن طويـلاً، خفَتَ الحب، كأنه غادر من النافذة، واختفى" .

- "وكيـف تعاملت "رشـا" مع التفاصيـل الأخرى، مع الكمين الذي نصب لك، ووقعتَ فيه بسهولة؟".

- "لم أُخْـفِ عنهـا شـيئاً، ما كنتُ سأشـعر بالراحة ، إنْ لم أسـعَ لإزاحة بقايـا الحريق الذي ظلَّ يكـوي القلب، قلتُ لها وكأني أحادث نفسي، واحتملت الأمر، كانت امرأة ناضجة، ربمـا لأنني تزوجتهـا في عمر أكبر من عمر هنـد حين عقدْنا القران، كانت تفكر بعقلها، وتضع أمامها هدفاً، وتسير نحوه، لم تندفعْ لتصيُّد الأخطاء وتضخيمها، أو تستنتج منها ما يمكن

أن تكسر به أنفَ الرجل الذي تزوجته، كانت تسير عن قناعةٍ في الاتجاه الـذي يعالج مريضاً جاء إليهـا بإرادته، وعليها أن تعيـده صحيحاً، وأن تبدأ معـه تفاصيل حياة مختلفة، تمنحُه خلالهَـا ما لم يجدْه في التجربـة الأولى، وتعوضه عن الحرمان، هكذا كانت "رشا".

أقول لك، وأنا الآن أقترب من عقدى السـادس، أني وجدتُ عندهـا ما لم أجـدْه لدى "هند"، فلم تعد بالنسـبة لي مجرد زوجـة، هي المعنى الذي يُجسِّـد عبارات السـعادة والراحة والعشـق والأمان والسـكينة والهدوء، إنها الأشـياء الجميلة مجتمعةً".

- "وهل توجد امـرأة في هذا العـالم، يمكن أن تحتمل تفاصيل الماضي، وتقبله هكذا، ثم تتعامل معه وكأنه لم يكن؟".

- "لسـتُ أبالغ، حين أسرد الأشـياء السـيئة التي مرَّت على حيـاتي، لصديق كان الأقرب إلى الـروح، حين رأيتك الآن كان هناك ما دفع إليّ شعوراً غامضاً بالراحة، وحين أقول ذلك عن "رشـا"، هناك اعتبارات منها ظـروف الزواج بهند,لم تكن مـع "رشـا" بهذا الاندفـاع، لم تقُدْنا عاطفة جـاءت في وقت متأخر وبعد جسِّ نبض، وتفاهم، ثم قبول، وخوف من تكرار تجربة الفشل الأولى، ثم انتقلنا إلى الشعور بالراحة، فالتفاهم، والرغبة المشتركة في بناء حياة مستقرة، أتستغرب من أني قلتُ

لهـا عن اللعبـة التي نصبت لي من عزت ابـن عم هند؟ خذ عندك، أخبرتُ "رشـا" أيضاً عن أمـور كنتُ أتصور أنَّ من غير اللائق أن تعلمَ بها، ولم تُغيِّرْ من نظرتها تجاهي".

- "أخبرتها بذهابك فيما يشـبه التذلُّل إلى منزل شـقة هند، آملاً في إعادة الأمور إلى مجاريها؟".

- "قلتُه لها، وبالتفاصيل".

- "يالهـا من امـرأة، لها أعصاب فولاذيـة ، أمعقولٌ أن تعرف امرأة بحماقات الرجل الذي ارتبطت به، ثم تأخذ ذلك ببرود؟".

- "لا تعتبرْ الأمرَ برود اً ، كان بمقدورها أن تنفعل، فتضيِّع كل شيء، لـو رأيت منها رد فعل غاضب، كنت سـأتوقف، بل وأخفى عنها ما يقلقني، سـعتْ وأفلحـتْ في أن تكون خزانة أسراري، والصدر الحنون، الذي أستسلم له راضياً، كطفل أتعبَه الرَّكض، إلى أن جاء يوم اختبار حقيقيّ، لم يكن مرَّ في مخيلتى أنه سوف يحدث، حين ظهرت من جديد في حياتي".

- "مـن تقصـد؟ ادْخُـلْ في الموضوع مبـاشرةً ، لا تلجأ لطريقتك المفضلة في الدوران بعيداً عن صُلب السؤال؟".

- " كانت ثلاث سـنوات قد مرَّت على زواجي من رشـا، نجحت، بعد جهد، في إبعاد شـبح ذكريـات العلاقة القديمة،

أخذتني تفاصيل الحياة الجديدة، كنت أسعى لتحقيق نجاح يعوض الفشل، اقتربت حياتي مع رشا، بمرور الأيام من حافة الانسجام، أنجبنا طفلين وانشغلنا بهما، وفى كل يوم كان الاقتراب بينى وزوجتي يتعمَّق ، حصلتُ على شهادة الماجستير ورحتُ أستعِدُّ لرسالة الدكتوراة، حتى كان اليوم الذي لم أكن أحسبُ له حساباً.

رنَّ جرس الهاتف، كان صوتها هو نفسه الذي لم تتغير نبراته في أذني، للوهلة الأولى اعتقدتُ أني أعيش واحداً من أحلام يقظة كثيراً ما صاحبتْ أوقاتي، وظلَّتْ تدور حياتي حولها، أُصِبْتُ بالخرس، أخذتْ تواصل ترديد اسمي، أدركتُ عندئذٍ، أنها هي، "هند" التي عرفت، عاد صوتها من جديد لينبعث في مسامعي، كان أمراً مُربكاً، لدرجة أن استعادة توازني، احتاجتْ وقتاً ، طلبتْ مقابلتي على وجه السرعة، بدا صوتها مَشُوباً بحرج، وهي تُبْدي الكثيرَ من عبارات الأسف، لم يكن أمامي رغم ما اعتراني من ذهول سوى الرضوخ، تواعدْنا، ولم أبلغ "رشا"، على اللقاء في واحد من الأماكن العامة في المدينة، كانت هي التي حددته، ولم أكن بعد أن تشاغلت بأمور أخرى، أتذكر إلاَّ حين جلست في مواجهتها على أحد المقاعد، أنَّ معظم لقاءاتنا في الوقت السابق، تمَّتْ في نفس المكان، وحول نفس الطاولة المنزوية وذلك الركن النائي، لم تكن المفاجأة بالنسبة لى لتمُرَّ كما مرَّتْ لقاءات في أماكن، بدا

لي الأمرُ متعمداً، وهو على الرغم من كل الملابسات، ما أرضى غروري، وأشعرني بأنه ربما كان رداً على الإهانة التي وُجِّهتْ لي قبل سنوات، حين خرجتُ من منزل عائلتها أجرُّ خيبة الأمل.

كانت البداية موحية ، مثلما لم يسمح اختيار المكان للأمور بالسير في طريقها، وحين اختارت "هند" لكلامها أن يتواصل بطريقة مغايرة لما كان استقرَّ في ذهني، كنت قد أصبحتُ مُهيَّأً لما سوف يكون عليه الحال، تعمدتُ أن أُبْدِيَ هذه المرة، بعض التحفظ.

استخدمتْ "هند" أكثرَ العبارات رقة، كأنها عادت إلى نفس شخصيتها القديمة، حين كنا طالبين في الجامعة، عصفورين صغيرين، منذورين للبهجة، تسعدهما المراوغة وتشقيهما، لديهما يقينٌ بأنَّ الشوق يكمُن في المراوغة، ظللتُ أستمع، لم تخرج كلمة واحدة من فمي طوال أكثر من ساعة، أخذتْ هي زمام المبادرة، راحتْ برقة بالغة تتحدث عن ما كان بيننا من عِشْرة، يفترض أن تجعل منا أصدقاء ، مادمنا فشلنا في أن نحقق نجاحاً في الزواج، فاجأتني تلك العبارة، ولم أكن في الأصل أتوقع أن تصدر عنها لي، أنا الذي بذلتُ جهداً هائلاً كي تغفر لي زلاَّتي، غيرَ أنها ظلَّتْ تتشبَّث بعناد، لن أستطيع أن أبرئَ نفسي من الانزلاق في خطأ قاتل، ولا أقول أنه كان يجب عليها أن تتخلى عن كرامتها كأنثى، لكني حاولتُ أن أكفِّر

عن خطأي، وهي التي أوصدتْ الأبواب في وجهي، ولم تسمحْ بـأن يكونَ للحياة بيننا خطُّ رجعة، وضعت سـدوداً في كل ما قـد يُعيد الأمور إلى طبيعتها، لا أُعْفِي نفسي، يا عادل - لكني لسـتُ قادراً على نسيان تشـبثها بتعذيبي وتحويل الحياة في نظـري إلى جحيم مقيم، لا تنظر نحـوي هكذا، كان عليها أن تفعل شـيئاً، لا أن تدفـعَ بي إلى الهاوية، قلتُ لك، توقَّفْ عن النظر تجاهي بمثل تلك السخرية".

- "لا أسـخر، أنا فقط أندهش من هذه التحولات التي تبـدو متناقضة ، ومع ذلك تركتَ نفسـك لأمواجها، كي تطوح بك في مسارات غريبة، وانسقتَ إلى حيث يكون الاتجاه".

- "لم أعقِّبْ على ما قالتْ ، ظللتُ أسـبَحُ وسـط أمواج من الذهول، واصلت الحديث وهي تتعمد الضغط على بعض الحروف لتبدو موحية، ظهرت لي هذه المرة أكثر نضجاً من كل مرة عرفتها فيها، لم تتعلـم إلاَّ أخيراً بعد التجربة المريرة التي عشـناها، توصلت إلى هذه النتيجة بعد وقت قصير من لقائي بها، لكن حديثها الذي تواصل، كشـف لي أنَّ في حياتها شعوراً أكثرَ مرارة، من فشل تجربتنا".

- "أتقصد أنها عاشتْ تجربة زواج أخرى، وفشلتْ فيها أيضاً ؟".

- "هذا ما حدث، بعد أن تمَّ انفصالنا,لم تمر ستة أشهر أخرى إلا وكانت قد تزوجتْ ".

- "من عزت؟.. ابن عمها؟ أليس كذلك؟".

- "هو ، لأنها رفضتْ سماع ما كنتُ ذهبتُ إلى مسكن عائلتها لأقوله، لو تركتْ لي الفرصة وقتها، ما كانت تورطتْ في هذا الزواج، وحين غادرت المكان بعد الإصرار على إغلاق صفحة علاقتنا، أيقنت أن عزت هذا الذي قام بترتيب تلك الخديعة، وكان هو الذي سيقطف الثمرة، أتذكر أني أخبرتك برؤيتي له وهو يخرج من مصعد البناية، ويتجه إلى مسكن عائلة هند؟".

- "أتذكر جيِّداً ".

- "وقتها، اتفقتْ العائلة على عودة هند إلى ابن عمها، في تلك الأيام مارس كلَّ الحيل حتى نجح في خداعها، أظهر نفسه على هيئة ملاك، وعدها بأنه سيكون صدراً حنوناً لها، سيعوضها عن تلك التجربة التي عاشرت فيها شيطاناً رجيماً، هو أنا، أصبحتُ أنا نموذج الشر المتجسد في هذه الحياة، وبات هو البريء الطاهر، الذي سيعوضها عن أيام أضاعتْها معي، دون أن تنال منها إلا الخيانة والآلام، كان مخادعاً كبيراً، أوقعَها في شِرَاكِه، ولم يكتفِ بما حقَّقه من نجاح في تدمير زواجي بها،

وانطلق وراءها حتى أنهى على ما كان في روحها من ألق".

- "أكان يريد الزواج، أم الانتقام؟".

- "لم يكن يعنيه من كل الذي جرى، غير تلقيني درساً، والردّ بقسوةٍ على رفضها له يوماً وتمسكها بي، في النهاية تمكن من تحقيق ما أراد، وبعد أن كاد يقضي عليّ، استدار نحوها، واستطاع أن يُحِيلَها إلى حُطَام، لو كنتَ رأيتها حين جاءت إلى ذلك الموعد، لأشفقتَ عليها، قلتُ لك أنها كانت تحاول إعطائي صورة مغايرة، بمرحها المفتعل، غير أنها في الحقيقة كانت مثل ساق نبات ممصوص، جسد ذابل لم يكن يوماً لهند، قستْ الحياة عليها كثيراً، وتحمَّلت في صلابة".

- "لم تقل لي بعد، ما الذي دفعها لتتذكرك فجأة ؟ لماذا طلبتْ مقابلتك، بعد مرور ذلك الوقت؟ ".

"حين جلستْ في مواجهتي، كان الإحساسُ بالضعف بادياً عليها، على الرغم من محاولتها تغليفَ حزنها بابتسامات، لم تكن في الغالب، سوى إطارٍ لجعل اللقاء أقلَّ ألماً ، قالتْ بعد أن صمتتْ قليلاً، أنها طلبت مقابلتي بعد ما أدركتْ أن ما جرى منها تجاهي، لم يكن تصرفاً جيداً، عبرت عن الندم لانسياقها وراء حماقة، أودتْ في النهاية بقصة حب، إن استطاعت مقاومة الرعونة، لكانت من أجمل قصص الحب، هذا الكلام

كان مُذهلاً لي، أنا الذي لم أكن متمسكاً بأي شيء في هذا العالم قدر "هند"، لكن الرياح جرت وانتهى الأمر.

جاءتْ وهـي تحمل ندمها، لكن بعـد أن سرتُ في طريق آخر، شـعرت أني وجدت ما كنت أبحث عنه فيه، بدا لي أنهالم تعرف التطورات التي شـهدتها حياتي منذ أن تركتني، لا أشعر بالشماتة، لأني ما سمحت بمرور مشاعر بالكراهية في خاطري تجاهها، كانت بالنسـبة لي حتى بعـد الانفصال، قصة جميلة عشـتها، ظلت بعد أن ابتعدنا في نفس مكانتها، وحين اتصلت وطلبـت المقابلة، لم أجـرؤ على قول كلمـة تغضبها، وجدتْ صوتاً يخرج من عمق القلب، يردُّ موافقاً على الموعد والمكان، ولما جلسنا متواجهين، شعرت بالقلب ينطلق قافزاً من جديد، سألتني:

- "هل لازلتَ حانقاً عليّ؟".

هززتُ رأسي نافياً، دون أن ينطق لساني، عادتْ لتسأل:

- " حتى بعد أن خرجْتَ من مسـكن عائلتي مكسـورَ الخاطر؟".

لم أرد لكني نظـرت إليها، حيث يمكن للعين قراءة العتب، اسـتدركتْ تقول أنها منذ أن جرت تلك الحادثة، ظلَّتْ تشعر بالنـدم، ولولا كبرياؤهـا لخرجت تركض خلفـي، تدعوني ألاَّ

أصـدق ما صـدر منها ، قالتْ أنها كانـت تتأهَّب لترتيب أمر زواجها من ابن عمها، في الوقت الذي فوجئت فيه بدخولي إلى بيت العائلة، فارتبكت.

خرجتُ عن صمتي، قلت:

- "لم أكن أسـتحقك يا هند، لـولا كنتُ جديراً بك، ربما الأقـدار هي التي فعلت ذلـك، ولعل ما حدث مني كان وراء الدعوة للابتعاد نهائياً عن طريقك".

أدهشتْني، حين ردَّتْ:

- "الأمور كانت ستنتهي لصالح عودتنا، لو تقدم موعد ذهابـك إلى منزل العائلة أسـبوعاً، في تلك الأيام، سـألني أبي ووافقتُ على الزواج من عزت، بعد وقت طويل من المماطلة، يحـدوني الأمل أن تفيق فجأة وتدرك أن من منحتك كل هذه المشـاعر، وتحـدَّتْ أهلها لأجلـك,لم تكن لتفـرط فيك بهذه السـهولة، غير أنك يا منير فهمت الرسالة بشكل خاطيء، منذ يـوم الاتفاق على الطلاق، فسـلمت بالأمر عـلى عجل، مثلما استسـلمت في المرة الأولى، عقب رفـض أهلي لخطبتك، أنت الـذي لم تسـتطع قراءة رسـالتي جيداً، وتركتَ نفسـك عند موقـف مـراوغ، اعتقدتَ أنه الأخـير، دون أن تحاول تغييرَه، فأضعْتَ كل شيء" .

- "هكذا قالت؟".

- "حملتني المسؤولية عن ما حدث، هذه هي هند دائماً، كانت في كل مرة تلقي كل المسؤولية عليّ، إذا ما حدث خطأ، لم أغضب يوماً من لومها، ربما لأنه كان يصدر، مُغلَّفاً بابتسامة، كنتُ أراها كافية، لتُذيبَ العتاب" .

- "لم تقُلْ لك أيضاً، لماذا جاءت، وفي هذا التوقيت؟".

- "في البداية، قالت أنها جاءت تعتذر، بعد ما شعرت بفداحة الجرح الذي تسببت فيه، اكتشفت أخيراً أنها مضت، بحماقة في المخطط الذي رسمه ابن عمها، علمت ذلك منه بعد فوات الأوان، في واحدة من اللحظات التي اندفع ليعايرها بالماضي، قالت أنها انساقت ورائي، وأني ضربت بإخلاصها عرض الحائط، ثم مرَّغت رأسها في التراب، حينما خنتُها مع امرأة عابرة، لم يكتفِ "عزت"، وأبلغها في لحظة شجار ليزيد جحيم الغيظ، بتفاصيل أكثر مما حدث، كيف استأجر لعُوباً لتغويني في وقت دخلت مسيرة الحياة الزوجية بيننا أشدَّ مراحلها فتوراً، اعترف لها شامتاً بأنه تزوَّجها للانتقام، كي يحطم غروراً دفعها لرفضه، ويمرِّغَ أنفي أنا الآخر في التراب، علمت ذلك، فاشتعل الحريق داخل كيانها، قالت أنها لم تشعر باحتقارٍ لنفسها، مثلما شعرت بعد ما سمعت هذا الكلام".

*****

الفصل الثامن

- "الابتسامة الودود لا تتقدم فقط لمصافحة الآخرين ، إنها أيضاً تبحث لنفسها عن بقعة خصبة لتثمر بهجة".

حـــين راحتْ تفكر في التفاصيل التي مــرَّت بحياتها، منذ التحاقها بالكليـــة وتعرفها بي، أخذت تـــسرد ذكريات العلاقة بيننــا، وما جــرى لها من ضمور بعــد الــزواج، خيانتي التي قصمت ظهرها، وشقت روحها إلى نصفين، ما سرى من أحداث في مجــرى نهر الحيــاة، عندئذ، وهي التي قالــت ذلك لا أنا، أدركــتْ أنها أضاعتْ صدراً حنوناً، كان يحبها بصدق، انهمرت الدموع دون توقف، وهي تقول:

- "حتــى لــو كانت هناك زلَّــة، فإنَّ الزمــن كان كفيلاً بمحوها".

مسحت بالأصابع فوق الخدين، أضافتْ:

- "كان ينبغي عــليّ كزوجة أن أحافظ على البيت، وألاَّ أدعَ الفرصة لخطأ بشري، لتدمير كل شيء".

أبلغتنــي أنها نادمة على ما جرى، وأنها بعد أن طالها ذلك العذاب، تشــعر أنها قد نالتْ نصيبــاً وافراً من المعاناة يكفي ليُكفِّر عن التــسرُّع، جاءت يا صديقي وفق ما قالت، لتطلب الصفح.

- "بعد كل ذلك، ما كان يهمها إلا طلب الصفح؟".

- "أتمنى ألاَّ تكون قاسياً عليها، غفرتُ لها كل ما حدث، والتمستُ لها العذر".

- "انتهى كل ذلك الآن، ومضى وقت بعيد، لكني أوَدُّ إخبارك أني لستُ قاسياً ، على العكس أعذرها فيما فعلت، ربما لو مكانها لتصرفت بقسوة أشد، إن كان لي أن ألوم، سيكون اللوم لك، أنت من انزلقت نحو زلة ما كان ينبغي ارتكابها، في الوقت الذي تحب فيه زوجتك، حتى لو هذا الحب قد بدأ في الانحدار نحو نقطة الخفوت ، هذا رأى لن يقدم من الأمر شيئاً ولن يؤخر، واصلْ حكايتك، أخبرني إن كانت طلبت منك، غير الغفران عما قالت أنه رعونة، أو على وجه الدقة، حماقة".

- "طلبت مني أن أساعدها، هل تصدق ما سأقوله، أساعدها في ماذا؟ في الحصول على الطلاق من عزت، هل تصدق ما تسمعه يا صديقي؟ أنا لم أستوعب الأمر، اعتقدتُ أنَّ أذنيَّ تخدعاني، وأنَّ في قولها خطأً مَّا، غير أنها لمَّا لاحظتْ الدهشة ترتسم على الوجه الذي تجيد قراءته، ردَّدتْ الكلام من جديد، ما جعلني أتحول من الدهشة إلى الفزع.

عادت ترجو منّي الوقوف إلى جانبها في المحنة الجديدة،

بعـد أن تخلى عنها أقرب الناس، أبوها وأخواتها، سـئِمُوا من تقلباتهـا، وانهالوا عليهـا باللوم، عاندوها حـين لجأت إليهم لتطلب المسـاعدة في الخلاص، ليس من "منير" هذه المرة، بل من ابن عائلتهم.

مرتان طلبت الخلاص من "عزت"، واحدة قبل الزواج مني، وهـا هي الثانية ، قالتْ أنها لم تعد تحتمل بعد أن اعترف لها بمـا فعل، وحين اكتشـفتْ أنه لم يكن راغبـاً بها في أي وقت، حينـما رفض أهلها خطبتي لها، لم يكن "عزت" يفكر فيها، بل ورَّطه أبوه" .

- "ألم تعلمْ أنك تزوجتَ من رشا؟".

- "لم تكن تعلم، ولم تسألني في البداية عن أحوالي، كان الحـوار يدور، في ظل قناعة ترسَّـختْ لديها، أني لن أقدم على قطع الأمل، كانت تظن أني سوف أنتظرها حتى لو طال العمر، عـلى الرغم من أنها اختـارت طريقاً آخر أوصلهـا إلى الزواج بغريمي، لا أفهم على أي أساس كانت تقيم حساباتها".

- "وهل وافقتها؟".

- "حـين راحتْ تبكي، كان شـئٌ مَّا يتفتَّتُ في داخلي، لم أحتملْ ما شـاهدت، وعدْتُها بالوقوف إلى جانبها مهما كلفني

الأمر، كنت أحاول دفعها لكفكفة تلك الدموع التي استخدمتها بنجاح معي، أصبحت أشــبه بمن أصابه سحر، فانجذب ، راح يسير فى طريق غامض، ليس يعرف له بداية ولا يدرك منتهى .

أبلغتُهــا ذلك، وجدتني فيما بعــد، أتواصل معها بالهاتف، أسألها عن أحوالها، أتابع التطورات التي تحدث، رحنا نتواعد، نلتقي في مدن متقاربة، عاد الذي كان بيننا أيام الكلية، وأُزِيلَ كلُّ الــذي جرى بعد الزواج وباعَدَ بيننا، اختلفتْ الأحوال عما كان من قبل، وبدلاً من أن يسود الحذر، وجدنا تآلفاً من نوع جديد، راح يزيدنا تشبيباً، انطلقنا نحدد موعداً أسبوعيًّاً للقاء، وما أن نلتقي حتى يســتغرقنا اليــوم بأكمله، وجدتْ صدورنا الحبيسة فرصتها، ففاض بحر الكلام.

فى البدايــات، كان الحديث يبدأ بالســؤال عن أحوالها مع زوجهــا، لكنه فيــما بعد أخذ يدور في اتجــاه آخر,لم يعد فيه "عزت" محوراً، ولا عُدْنا نتطرَّق إلى المشكلة التي طلبتْ مني الوقــوف فيها إلى جوارها، عُدْنا إلى نفــس المربع الأول، وعاد الوله والاشتياق، ونشوة السعادة الغامرة، كأنَّ الذي أبعدنا,لم يزدْ عن ســحابة ظهرت ذات صيف، وتبخَّرت في الهواء، وكأنَّ الخلافــات التــي أنهكتنا، ودمــرت بهجتنا,لم تكــن غائرة في القلب".

- "وأين رشا من كل هذا ؟".

- "استمر الأمر نحو خمسة أشهر، لا أعتقد أن "رشا" نما إلى علمها شـئٌ مما كان يجري، غير أن تأخرى الذي يستغرق طيلة النهار، بدأ يثير التساؤل، لكنه لم يزدْ في كل الأحوال، عن طرح سؤال قَلِقٍ بشأن الغياب.

كنت أرجع الأسباب إلى الانشغال بالتحضير لرسالة الدكتوراة، بما يتطلبه من لقاءات وبحث، وسفر، كانت تستمع، وأظنها في تلك الأيام لم تكن قد سمحت للشكوك بأن تسري، على الأقل، لم تداخلني شـكوك لتحذرني من أن تكون قد أدركت ما يدور خلـف ظهرها، كانت على قناعة بأن شـخصية "منير"، لم تعد كما كانت قبل زواجنا، كان لديها يقينٌ من أنها نجحت في إزالة بقايـا المـاضى، بكل ما فيه من مـآسٍ أو مباهج ، ولم تكن، في رأيي، في تلك الأيام، إلاَّ مخدوعة.

راحـت اللقاءات تتواصل، حتى وجدنا أنَّ هناك حاجةً إلى المزيـد، فاتفقنا عـلى الالتقاء مرتين في الأسـبوع، كنا نتحدث عـن كل شيء، وأي شيء، لم يكن الكلام يتوقف بيننا، ولم تكن هناك فترة نسعى فيها لالتقاط الأنفاس، أو إعادة ما لدينا من أفكار، كانت اللهفة في حالتنا طاغية، ويقودنا الحنين إلى الأيام الخالية في تسـارع عجيب، كنا سـعداء، وحين نتذكر سنوات

الجامعة، نضحك كثيراً من تلك السذاجة التي كنا عليها، هذه المرة حفظت أشعار "نزار قباني" عن ظهر قلب، بدا لها "نزار" موازيـاً لعبـد الحليم، عادت تتمايل في وَلَـهٍ مراهقة، تضغط على كفي، وأنا أغني لها مقاطعَ من أغنية (الليالي)حينما كنا نتمشى على الكورنيش، أو في الممرات الطويلة لإحدى الحدائق: (يا حبيبى عشت أجمل عمر ف عنيك الجميلة، عشت أجمل عمـر، أوصل الأيام مع الأحلام بغنوة شـوق طويلة، للرموش السمر) .

كيـفَ لي أن أهرب مـن فيض الأضواء التـي أحاطتْ بي؟ وكيـف أبرر ما اندفعـت إليه؟ مع أني أشـعر بامتنان عميق لرشـا، لن يغفـر لي إن تسـببت في إيلامها، آه لـو علمت بما يجري، سـيكون عليّ بذلُ أقصى ما أقدر عليه من جُهد، كي لا تعرف، كنت أقنعتُ نفسي، بأنها لن تتوصل إلى السـبب الذي يأخـذني منها، ومن كياني ومن الدنيـا التي تموج حولي، كنت أسـتبعد أيَّ خاطر يمر في الذهن ويحذرني من أنَّ يوماً قد يأتي وتتزايد لديها الشـكوك، فتسعى للإمسـاك بحقيقة ما يدور، عندها سأكونُ قد فرَّطْتُ في زوجة رائعة، وسأكون سددت لها ضربة قاتلة، وقتها سـأخسر "رشـا"، بينما أصبحت على يقين بـأن "هند"، قد تكون حبيبة مذهلـة، قادرة على إيصال من

تحب إلى أقصى درجات السعادة، غير أنها في مسألة الزواج أستاذة في علم الفشل".

- "إلى هذا الحد اخترت لحياتك؟ زوجة جيدة، ومعشوقة رائعة؟".

- "في تلك الفترة، رأيتُ أن هذا الوضع هو الأفضل، شرط أن لا ينكشف الأمر، لم تكن "هند" تُشكِّل لي مأزقاً، شرط ألا يكتشف زوجها أمر لقاءاتها معي، أما "هند" فباتت تعرف عبر تلميحات متفرقة بزواجي، لم يكن الأمر يعنيها، بعد أن وجدنا أن تلك الحال، هي الأفضل لكلينا، اتفقنا دون كلام صريح، أنَّ الحب يجب أن يجمعنا، على أن يترك التفكير في الزواج، لكل منا زوج، ولنا معاً أجمل لحظات الهوى.

غير أنه كان لابُدَّ من تحول آخر، فعندما أمسكت "رشا" ببعض الخيوط البسيطة، وراحت تربط بينها، تغزلها معاً وتعيد الترتيب، بدأت الشكوك تتسلَّل إلى القلب الذي كان مُغلَّفاً باطمئنان، عندئذٍ بدا لي أنَّ تغييراً راح يلوح في مسار أيامنا، في كل يوم، أخذت "رشا" تطلب مني اصطحابها في زيارات للطبيب، وللسوبر ماركت، راحت تخترع لنا أسفاراً طويلة إلى البلدة التي تقطن فيها عائلتي وعائلتها، للإسكندرية وشواطئها والساحل الشمالي وقُرَاه، بدأتُ أتشكَّك في أنها

علمتْ بأمر علاقتي بزوجتي السابقة، ظللتُ أراوغ، ساعياً إلى إبقاء الأوضاع التي أعيشها في البيت وخارجه على ما هي عليه، أستعيد الذي قلته، وكل ما لمَّحت إليه "رشا"، فأستنتج، أنها حتى تلك اللحظة، لا تعرف أي شيء، وأستبعد أن تكون الشكوك داهمتها من أي نوع تجاه غيابي، آه ما أجبن الذين يعيشون حياتهم مثلي في ازدواج مرعب !

طلباتها المتواصلة لمرافقتها إلى أي مكان، بدتْ لي في نفس الوقت، حيلةً لإبقائي إلى جانبها في البيت لوقت أطول، مثلما كان الأمر من قبل، ربما لأني حين كنتُ أعود في نهايات الأيام التي ألتقى خلالها "هند"، صامتاً ، ليس لديَّ الرغبة في الحديث، إلاَّ بكلمات قليلة، وكيف لي أن أجد ما أقوله لرشا، بعد أن يكون مخزون الكلام لديّ قد نفذ مع "هند"؟ أشكُّ في أن "رشا" لاحظتْ ذلك، لعلَّها خشيتْ من أن يجري معها ما سبق أن أخبرتها به، عن فتور العلاقة مع من كانت زوجتي، لعلَّها تقوم بإجراء احترازي، لتظلَّ الصلة بيننا على الحال الذي كان عليه في بدايات الزواج، ربما، وربما أيضاً كانت تحتاط لأيِّ طارىء، فما الذي يضمن أن لا يقعَ زوجُها في غرام أيِّ امرأة؟

في هذا الوقت، حاولتُ قدر ما استطعت مجاراة "رشا"، وكنتُ أهاتف "هند" في بعض الأحيان، معتذراً لظرف طارئ،

كان الهاجس الذي ظلَّ مقيماً في داخلي، يحذرني من التفريط في بيت الزوجية، ربما كان في الأمر بعضُ أنانية، ليكنْ، غيرَ أنَّ انهيار تجربة أخرى بالنسبة لي سوف يسبِّبُ لي ألماً قاسياً، كنتُ أنزعج إلى أقصى درجة، من مجرد مرور خاطر يحذرني من الاستمرار في هذه الغواية، وما يمكن أن تنتهي إليه في ختام الرحلة,لم أكنْ مستعداً للتفريط، في "رشا" على وجه التحديد، غيرَ أني في نفس الوقت، كنتُ أَشْبَهُ بصوفيّ مجذوب، يطوح رأسه شمالاً ويميناً، ويردد عبارات سمعها ولم يفهمها، معتبراً أن تلك الحال من السحر هي مكمن سعادة، جاءت إلى القلب صدفة، وبات عدم التفريط فيها ضرورة.

كيف يمكن لي أن أفسر هذا ما يجرى معي؟ أي طبيعة بشرية تلك التي تسكنني، فلا أستطيع الانفلات من واحدة ولا من الأخرى؟ كيف لي أن أجمع بين الاثنين، دون أن يخبِّئَ لي المصير المجهول كارثة على الطريق؟لم أعُدْ أعرف الإجابة، مثلما فقدت القدرة على توقع ما يمكن أن تُسفِرَ عنه الخطوة القادمة".

- "والنهاية، كيف جاءت؟".

- "على الرغم من مجاراتي للطلبات التي ازدادت من "رشا"، فإني في النهاية توصلت معها إلى اتفاق، أن تتركني يومين

في الأسـبوع كي أتفرغ لبحثي وانشغالي في التدريس والتحضير، على أن تكون لها الأيام الخمسة الباقية، وافقتْ، فاسترحتُ، لم تكن الكلية تستغرق مني أكثر من ساعتين في اليوم، ويصبح ما بقى من النهار موزعاً، ما بين رشا، وتفرغي لهند التي انتزعتُ لأجلها وقتاً ، من جدول زوجتي الصارم.

اسـتمرَّت اللقـاءات، راح اللَّهيب الحـارق، يكوي القلب فيزداد انتشـاءً ، يغمُره فرحـاً فيُحِيلُه إلى طائر له ألفُ جناح، يحلـق في أعالي العالم، ثم يعود إلى الأرض حالماً بالموعد التالي، من أين تأتي لنا تلك المشـاعر؟ وأين كانت بعيدة عنا؟ وكيف لي أن أتصـوَّر يوماً أنَّ هناك لحظةً، سـوف تجيء لتضيع من لساني مذاقها المدوخ ؟

فى أثنـاء تلك البهجة، كانت تبدو عليّ ملامح لا تخفى على أنثى، التقطت "رشا" واحدةً، فأخرى، بدأت تفكر في الأمر أكثر من مـرة، وتعيد تجميع الشـكوك، الأولى بالتالية، بات لديها سِـجِلٌ يتضخَّم مع كل مرة أعود فيهـا إلى البيت متأخراً، راح إحساس الزوجة يتوجَّس، بدأ الرادار الأنثويّ يعمل بتركيز أكثر من كل المرات السـابقة، توصلت في النهاية إلى خلاصة، تُشير إلى أنَّ شـيئاً مُريباً بدأ يتَّخِذُ شكلاً مَّا، وبات "منير" يتحول إلى شخص آخر، غير الذي عرفت.

لم تنطقْ بكلمة تشير لي وجود الشكوك التي تداعبها، لم تسألْ إلاَّ بصيغ معتادة عن أمور حياتية، أخفتْ عني ببراعةٍ أيَّ إيحاء قد يُنبِّهني إلى أن تصرفاتي لم تعد كما كانت، غيرَ أنها كانت قد خططت لأمر لم يكن يخطر على بالي في أي وقت.

حدثتْني عن إمكانية الحصول على شهادة الدكتوراة الخاصة بي من الخارج، لم تكتفِ بذلك، اتجهتْ نحو خطوات عملية، راحت تسأل وتراسل مراكز بحثية وجامعات في عدد من الدول، وعلى نحو مفاجيء، قامت ذات مساء بعرض الردود التي وصلت إليها، كان فيها ما يجعلنى أفكر في الأمر، مع أني لم أسْعَ يوماً إلى مغادرة مصر، ولم يكن لديّ أيُّ حُلم مشابه لأحلام أقراني في العمل بعيداً عن بلدتي، أو إكمال دراساتي خارجَها، فكيف سيكون موقفي، بعد أن استجدَّتْ أمور أخرى، تشدُّني إلى هذا المكان أكثر؟

رحتُ بهدوء أقاوم الفكرة، فى ذهنى كانت تُطِلُّ صورة "هند"، تحرضني على رفض الأمر برُمَّته، من المؤكد أن المقاومة، نبعتْ من هنا، صورتها التي لم تعد تفارق خيالي، حتى أنني بِتُّ مسحوراً، لا تضحكْ يا عادل من تلك المقولة التي كان يرددها أهلنا، فكيف تفسر ما يجرى معي، بعد أن باتتْ حياتي ومسارُها مرتبطاً بهند؟ بلقاءاتنا التي لم يعد لنا

غنىً عنهـا، بالحجم الهائل من الفرح بعـد كل موعد، كيف لي أن أتـرك كل ذلك، لأذهب إلى بـلاد بعيدة؟ هل يجب أن أحصـل من هناك على شـهادة، يمكن الحصـول عليها وأنا في نفـس المدينة، ثم تكون النتيجة فقـداني لتلك الحالة المبهجة التى أعيشـها، وتغمرني فيها "هند" بحب، كان أشد روعة من ذلك الذي تصورت أني عشت معها ونحن طلاب؟

اخترعت عشرات المبررات، لكنها تشبثت بهدوء المستريب، بإلحاح الواثق في أنه عبر الوقت والنقاش، سـوف يتمكن من نيل ما يريد، كانت- فيما أسـتعيد الأمر الآن - تظن أن السفر بعيدٌ ، باتَ بالنسبة لها هو القشة الأخيرة التي ينبغي التعلق بها، لإنقاذ البيت، وجذب زوجها من عمق البئر.

ظلَّ التجاذب على حاله، كانت "هند" تمنحني من كلمات العشـق، ما جعلني أشـعر بأنَّ حياتي لم تعد تحتمل الابتعاد عنهـا، باتـت المرأتـان تجذباني بشـدة نحوهـما، وقعتُ في المنتصف، وراحتْ كل واحدة تشـد أطرافي نحو الاتجاه الذي أرادت، أصبحتُ أقرب إلى من لا يملك من أمر نفسـه شـيئاً، مجرد كرة على طاولـة، يوجهها طرفان في مباراة حامية، وهو يقترب من الاثنين، ولا يتصور أن يفقد أياً منهما.

أصبحتُ بعد وقت، متأكداً من أن "رشا" تعيش أكثرَ أيامها

تشـــككاً، لكنَّهـــا لم تفعل مثلما فعلت "هنـــد"، هي الآن تزِنُ الأمـــور بعقلها، لا تريد الانـــزلاق إلى اندفاعةٍ هوجاءَ يمكن أن تساهم في هدم البيت الذي أعادت ترميمه، وردَّتْ بمزيد من الجهـــد زوجها إليه، حتى وإن باتت عـــلى يقين من أنَّ هناك مـــا يثير الريبة، فإنَّ الأمر ليس يتعدَّى الشـــكوك. من معرفتي برشـــا في تلك الفترة وما بعد ذلك، أؤكد لك يا عادل، أنَّ "رشا" لم يكـــن يهمها أن تعرف، وربما كان عدم رؤية يقين شـــاخصاً، أفضلَ لها، وأقلَّ قسوةً على مشاعرها، من خسارة فاجعة.

فى تلـــك الفـــترة حدث أمر مزلزل، كنـــتُ و"هند" في نفس الركن النائي من المكان الذي اعتدنا على قضاء الســـاعات فيه، في تلـــك الأيام التي كنتُ واقعاً بين جاذبين، الســـفر أو البقاء، "رشـــا" أو "هند"، الحـــب أو الاكتفاء ببيـــت الزوجية، ثنائية مؤلمة لم أستطع بمرور الشهور المفاضلة بينها، كنتُ مثلَ طفل ظلَّ يتشـــبَّث بما يحب، وكان الزلزال متأهبـــاً، تقدم خطوات قليلـــة، هادئاً كان وواثقاً، قبـــل أن يتوقف بالقرب منا، كانت أكفنا تتلامس وعيوننا تكاد مـــن بهجتها، تتقافز من المحاجر، كان مشهداً من ذلك الذي يتكرر في أفلام العاشقين، لكنه كان لدينا هو الدنيا ومَنْ فيها، تقدم خطوة واحدة إلى الأمام، حتى صار مباشرةً في الجانب الذي يغطي على مشهد التئام أصابعنا،

وقتهـا ظننّاه نادلاً ينتظر، فلم نكـترثْ، لكنَّ الرجفة اجتاحتْ كيانَنا حين نطق:

- "يا سـلام، يا سـلام على الحب، بسم الله ما شاء الله، و"لا عمر الشريف وفاتن حمامة" ...".

قفزت "هند" حتـى ترنَّحتْ في مكانها، هوَتْ على الأرض، فانتفضتُ أسـاعدها عـلى الوقوف، بينما وقـف هو جامداً، يرمقنـا من أعلى، بنظرة كانت أشـبه بنصـل خنجر متأهب للطعـن، ندَّتْ صرخة رعـب عن "هند"، أذهلتهـا المفاجأة، فيما ظلَّ زوجُها على نفس النظرات والصمت، تماسكت قليلاً، غادرت المكان، ليتبعهـا "عزت" وهو ينظر نحوي، ما جعلني أتصوَّر أنه كان يسـدد لي وعيداً مفزعـاً، قد تجري من بعده بحور الدماء.

حاولـتُ الاطمئنان على "هند"، لكـن الهاتف لم يعد يأتي بـرد، توقعـت أموراً كثيرة، غـير أني لم أصـل إلى يقين، قررت الذهـاب إلى بيت عائلتها من جديد، تراجعت، سـأكون بمثل هـذا التصرف كمن يذهب بنفسـه ليؤكد اتهامـاتٍ لابد أن "عزت" قالها وهو يشرح ما جرى للعائلة.

قررتُ أن أرجئ الأمر، ثم أعاود الاتصال، على الأقل أسـافر

إلى الإسـماعيلية وأظل أراقب منزل عائلتهـا، ربما تخرج منه ذات يـوم إن كانـت قد غادرت منزل زوجهـا إليه، ظللتُ في حيرة، هل الوقوف في الشارع الآن لمراقبة الداخل والخارج من البناية، يليق بشخص في مثل عمري؟

تردَّدْتُ، وإن كانت الهواجس أوصلتني إلى حافة الفزع، راح جنون العاشـقين يطاردني ويحرض على خوض أشد التصرفات حماقةً، كنتُ على الرغم من ترددي، أعود في سلوك أحمق، لا أترك "هند" تواجه المصير وحدها.

وكأنَّ تلك الحادثة كانت تحتاجها "رشا"، كي تقرأ في الليالي التاليـة ملامح وجهي بعمق أكـثر من أي وقت مضى، وتتيقن هذه المـرة، من أنَّ انقلاباً مُرعباً حدث، وأنَّ تداعياته سـوف تصـل إلى بيتها، مع ذلك لم تتكلم أيضاً، حافظت على هدوئها المريب، وهو ما دفعني بجدية للتفكير في مجمل الحكاية، وفى العواقب التي يمكن أن تسفر عنها.

راحتْ مـن جديد، وعبرَ طرق عدة، تعيد على مسـامعي حكايـة إكمال الدراسـة في الخارج، تؤكـد أنَّ إنجابَ الأطفال هناك، سـيكون أكثرَ ضماناً للمسـتقبل، وفى الأيـام التالية لم تتوقف عند حدود الحديث، راحتْ تراسـل جامعاتٍ جديدة، وتسعى لدى مكاتب الهجرة إلى أستراليا ونيوزيلند وكندا.

باتت "رشـا" تحاصرني، على وجه الدقة، تخيرني بين دراسة متاحة في جامعـات مرموقة، أو الهجرة معـاً إلى بلاد بعيدة، فهل كنتُ في حاجةٍ لإشارات أشد وضوحاً كي أوقنَ بأنَّ زوجتي تشك في زوجها يلعب بذيله، خارج العش الذي هيَّأته له؟

مـا كان يحيرني أنها لم تنطق بكلمة، لم ترسـل أيَّ إشـارة، أسـتطيع أن أفهم منها، علمَها بما يـدور، أو تحذرني فيها من السير فوق طين زلق".

- "وهند، ما الذي جرى معها بعد ذلك؟".

- "كـدتُ أُجَـنُّ في الأيام التالية، وأنـا أحاول معرفة أيِّ أخبار عنهـا، ترددت كثيراً في الاتصال مجـدداً، مرت المحاولة الأخيرة على خير، لعل "عزت" فـرض رقابته الصارمة عليها,لم يكـن من الحصافة في ظل الهواجـس التي راحت تنتابني، أن أتجاهلَ ما جرى وما يمكن أن يحدث لها، لأغامرَ باتصال، ربما يكون على الطرف الآخر منه، زوجها.

الأفكار الأخرى التـي راودتني، لم تكن أقلَّ خطورة، تركت الزمـن ليتكفَّل بالحـل، ولا أعرف كيف تحملـتُ غيابها، غير أني الآن أدرك أن الأيـام التـي مرت، سـاعدتني على الدخول إلى مرحلة جديدة، راحت فيها أحاسـيسي المندفعة تتجه إلى

الهدوء، لاحظتْ "رشـا" ذلك، ولم تنبُـسْ بكلمةٍ كعادتها، أي امرأة هى تلـك؟ كأنها كانت تقيس ردود فعلها، مشـاعرها، تصرفاتها، والملامح المسـموح لها بالظهور على قسمات الوجه، بميزان من الذهب، متناهي الدقة.

هدأ البركان الذي ظلَّ يغلي في داخلي، سـاعدتني "رشـا" عـلى تجـاوز المرحلة التي كانـت بالغة القسـوة، بعد مرور الوهج، رحتُ أستكين نفساً، وأنتظم في عملي وبيتي، عدتُ إلى نفس الشخص الذي عرفتْه "رشا" في أيام اقترانها به، حين كان سـلوكه ليِّناً طيِّعاً ، انتظرت أن تطرد فكرة الهجرة من رأسها، أو تتخـلى عنها، ولو لسـنوات قليلة تتطلبها متابعة الرسـالة الجامعيـة، غير أنها وصلت إلى قناعة، لم تخبرني بها، وإن كنت تلمَّسْتُها من ذلك التشبُّث، تشير إلى أن الزوج الذي هو أنا، قد ينجـذب إلى علاقة جديدة، إن تعرض لموقف جديد يبعث في قلبه حرارة المغامرة، لم تكن "رشـا" نفسها، قادرةً عليها، وهى تتلبَّس شـخصية الزوجة الأم، التي تحسـب ألف حساب لأي تصرف يصدر عنها، والتي بعد أن باتتْ تحمل في رحمها جنيناً، تقاتل كي لا يحدث ما ترتبك منه الحياة الزوجية.

كان لابُدَّ من الرحيل بعيداً عن زوابعَ ربما تهبُّ بلا سـابق إنـذار، اختارتْ أن تَلُفَّ جناحيها عـلى جنينها، وتطيرَ بزوجها

الذي بات مثل عصفور، ضعيف أمام كلمة رقيقة أو غمزة عين ماكرة، تُلقِيها في وجهه عصفورةٌ لها جمال مغرد.

رضختُ في النهايــة، هل لي أن أرفض هــذه المرة، بعد أن وضعتْني أمام الخيار الصعب ؟ بدأنا المشوار، سرنا في طريقين ســيتقابلان في النهاية عند طريق واحد، يؤدي في كل الأحوال إلى كنــدا، الأقرب إلى قارة، التي غــادر إليها من قبلنا معارف، وأخافوني من قسوة جليدها.

بعد وقــت، وصلتْ الموافقة من جامعــة "يورك"، لم يكُنْ هناك مــا يدعوني للمماطلة، وقبل أن أكمــل الحكاية، أوَدُّ يا عــادل أن لا أخفي عنك سِرّاً ، بعد أن شــعرتُ أن ســفرى إلى البعيد، دون الاطمئنان على أحوال "هند"، سوف يظل يؤرقني ويُنغِّص عليّ حياتي، سافرت إلى الإسماعيلية وظللتُ أدور على الأماكن التــي كُنَّا نلتقي فيها، مكثتُ وحيــداً في الركن النائي، هناك ســألتُ النادل، لم يكن قد رآهــا منذ المرة الأخيرة، التى شهدتْ موقعة زلزال زوجها.

دُرْتُ في الحديقة، سِرْتُ في الشــوارع، التي كنا نعبرها معاً ببهجة طفولة، رحتُ أقطع الطريق إلى منزل عائلتها، أتلصَّص مــن بعيد، أُمنّــي نفسي بإطلالــة وجهها على فضــاء المكان، تمنَّيتُ لو أنَّ الشــجاعة تأتينــي، فتدفعني نحو أحد الباعة في

صف المحلاّت المتراصة أســفل البناية، غير أن الخوف من سوء العاقبة، ظل يكسّر مجاديفي، ويُباعد بيني وأي تهور.

*****

الفصل التاسع

- "مـا أســوأ أن لا نســتطيع التعبيرَعن مشاعرنا لمن نُحب ، أن نتعلَّل بأيِّ مبرر ، لنؤجِّلَ سريان ذلك الدفء الباذخ".

لم يكفِ الوقت الذي اقتطعناه، مع أن الساعات الطويلة راحت كلها وهو يواصل سرد تلك الحكاية التي بدتْ لي وقتها أنها بلا نهاية، حلَّتْ الحادية عشر مساءً وشعرتُ بإجهاد، أنا الذي أستمع وأسأل وأعقب، أصبت بالتعب، فكيف يكون الحال مع "منير"، بينما هو يستدعي الأحداث التي وقعت عبر سنوات عديدة، ويقدمها لي طازجة؟

لم يتركْني أغادر الكافيه، إلى الفندق إلاَّ بعد أن تواعدنا على الذهاب إلى المطار معاً قبل الموعد المحدد للطائرة بأربع ساعات، وعدني أن يُنهي بقية الحكاية، ثم يتركني لأصعد الطائرة، بينما يعود هو بعدها إلى "رشا"، نَقِيَّاً.

في الصباح، جاء إلى الفندق، وطوال الطريق إلي المطار، ظلَّ يكمل الحكاية وهويقود سيارته، وبعد أن وصلنا جلسنا في مقهى بالداخل وواصل دون أن يلتقط أنفاسه، كان يبدو عليه الإصرار على عدم ترك أي جزء منها لزيارة قادمة، بدا لي بالفعل كمَنْ يحمل أثقالاً ويريد التخلص منها في أسرع وقت.

رحتُ أستمع، وراح يواصل في حماس:

- "أخـذتُ أروح في المـكان وأدور حواليـه، وفي لحظة، كأننـي ابتلعتُ فيهـا حبوب الشـجاعة، انقضضـتُ لألحق بصاحب محل لكيِّ الملابس، كثيراً مَّا كان يراني حين كنتُ زوجاً لهند، سـألتُه، تردَّد الرجل، ثـم تذكَّر ملامحي، قال أنه لم يرَها منـذ وقت، تحاملتُ على نفسى ، وهربتُ من المكان خشـيةَ أن يلمحنـي أحد، أخذتُ ألملم بعضي، قـررتُ في لحظة يأس أن أنطلـق إلى بيتـي في طنطا، وأنْ لا أعودَ مُجدَّداً ، لسـلوك نَـزِق، ليـس يليق ، لكنْ ما ينوي عليه المـرء شيءٌ، وما تجرى به المقادير، يظلُّ شـيئاً مختلفاً، لماذا بدتْ عليك الدهشـة يا عادل؟ ألم يحدثْ معك هذا يوماً، لم يحدثْ أنْ اتخذتَ قراراً ، ثم فُوجِئْتَ بتغير ما اعتزمتَ ؟"

- "أكملْ حكايتك هذه التي لا نهاية لها".

- "ما جرى هو أنه في غَمْرة استعدادنا للرحيل، بعد أن اتخذتُ قراري بإحراق الجسـور التي ظلَّتْ تربطني بالحكاية القديمة، وأن أبدأ الانتظام داخل حياة أخرى ، بمجرد أن وضعتُ قدميّ في الطائرة مع "رشا" ،كنت أجلس في مكتبي بالجامعة، جئتُ لحضور حفل وداعي، أصرَّ أسـاتذتي وزملائي على إقامته لي، خلال انتظار الموعد المحدد، رنَّ جرس الهاتف، حين رفعت السـماعة، كانتْ المفاجأة التي أعادتْ صدى الزلزال إلى كياني، صوتها هو الذي سرَى عبرَ أسـلاك الهاتف، راح يدور في عمق

رأسي، وتحديـداً في تلك البقعة التي طالما طوَّحتْني، وتلاعبت بي بين بهجة العاشق وعذابات الملتاع" .

- "عادتْ من جديد لتُهاتفك؟".

- "حتـى الآن، كلَّما فكَّرْتُ في الأمر، لا أسـتطيع معرفة السـبب الذي دفعها لاختيار هـذا التوقيت، هل تصدقني إن قلـتُ، أنها كانتْ تعلم لأني بتقديمـي طلباً للجامعة لتأذن لي بالسفر، جاء اتصالها لتبلغني رسالتها، في الوقت الذي أفلحت في إطفاء جذوة اللهفة ؟

كان صوتها له رنين الأسى الجليل، قالتْ أنها أرجأت الوداع إلى آخـر يـوم، كانت تدرك أن الذهاب سـوف يكـون نهاية الحكايـة: " لتكن الذكريات الجميلة بيننا، غير أني أريد الوعد منـك، بأن تطرد كل ما مرَّ على علاقتنا من لحظات حزينة، لم يعد في ذاكرتي إلاَّ ما كان سـعيداً، عِشْ حياتك بالشـكل الذي تستحقه، وثِقْ أني في كل يوم سوف أعيش على ما كان بيننا".

لم تقُلْ غيرَ هـذه الكلمات، ولم تدعْني أرُدُّ المجاملة بمثلها، سـارعت إلى ترديد كلمات وداع قصيرة، كانت مغلفة في تلك اللحظة بحشرجات الدموع، سـمعت صوت سـماعة الهاتف يغلق، وقفتُ مذهولاً، لا أشعر بالزملاء الذين كانوا حولي، وهم يدعونني للاحتفال، مشـيتُ إلى جوارهم وأنا أحس بجسدي

في عـالم آخر، لا أعرف مـا الذي تفعله بي "هنـد"؟ أي امرأة هذه؟ ظلَّ السـؤال يلف في رأسي ويدور، بينما كانت عميدة الكلية ورئيسة القسم والزملاء يختارون أجمل عبارات الوداع، ويتبـارون في الثنـاء على الصحبة، مع إبـداء أطيب الأمنيات بالتوفيق في الحياة الجديدة.

ظلَّ الرأس يدور، وظلَّتْ الأسـئلة تتداعى : كيف لم يصمد الحـب الـذي كان بيننا ؟ كيف سـاهمنا بحماقات أطفال في إضاعتـه، لنبكي عليه الآن؟ كيف لاثنين جمعَ الحبُّ بينهما إلى درجة أن يتنازلا بسـهولة عنه، رغم أنَّ القلبَ مُفعمٌ بالحنين؟ أسئلة مؤلمة، لكنَّ الأشدَّ ألماً أن يصحو العصفوران على حقيقة أن الطريـق إلى البهجة باتَ مغلقاً، وأن الأجنحة التي كثيراً ما رفرفتْ، قد اسـتحالتْ في نهاية النـزق الجميل، إلى كومةٍ من حُطَام".

- "هل علمتْ "رشا" بالمكالمة الأخيرة؟".

- "لم أُخبرهـا أبـداً ، كـما لم أحْـكِ لها يومـاً عن تطور علاقتـي بهند، ولا باللقـاءات التي تمَّتْ لا قبـل انقطاعها في أعقاب مفاجأة عزت في الركـن النائي، لكنْ كما كنتُ أخبرتُك، كانتْ حاسَّـة الأنثى لديها أخبرتها أنَّ شيئاً مَّا يدور، وأنَّ هناك ما يدفعها إلى الشـك في وجـود تبدلات لدىّ، وهو الأمْرُ الذي

دفع "رشـا" إلى أن تواصل الإلحاح من أجل الابتعاد عن مصر، ولا أظـنُّ أن ذلك كان مـن بين ما كانتْ تفكر فيه أصلاً في أيِّ فترة مـن حياتها، كانتْ تتصرَّف بحـسِّ الأنثى التي يجب أن تقاتل للحفاظ على عشها".

- "انتهـى كل شيء مـع "هنـد"، فهـل اختفـتْ من حياتك؟".

- "سـافرنا إلى كندا، وعشـنا في "وندسور"، واحدة من المدن الصغـيرة التي تحيط بتورونتو الكبرى، انشـغلتُ كثيراً بدراسـتي، وأخذتني الحياة الجديدة، ذات الإيقاع المختلف، صـار عملي في الجامعة هو الذي يسـتغرق الكثير من وقتي، على الأقل في الفترة الأولى التي ينبغي خلالها تثبيت الدعائم.

فى تلك الأيام، خفت فيها اتصالاتنا بكثير ممن كنا نعرف في مصر من معارف، عدا الصـلات التي حرصنا عليها مع الأهل، وقليل من الزملاء الذين كانوا هم الأقرب إليّ في عملي السابق، كنـا نتهاتـف في أوقات متباعدة، في بعضهـا كنتُ أطلب من أحدهم أن يرسل لي مستنداً أو شهادة، يحتاجها تقديمي لطلب في الجامعـة الجديـدة، أو مواصلة تعليم زوجتـي، ومعادلة شهادتها الدراسـية، غمرتني "رشـا" بكل ما يمكن أن تقدمه زوجة مخلصة لزوجها، وفى وقت قصير، استطاعتْ التأقلم مع

تفاصيل المعيشــة في المكان الجديد، ســعتْ لتهيئة الأمور في عشــنا، من أجل استقرار، ظلّتْ منذ الوهلة الأولى، تسعى لأن يكون دائماً، على الرغم مما مرَّ بنا من صعوبات، كانت تخفف مــن وقعها، بالتأكيد على أنها من الأمور العادية، التي كثيراً مَّا تواجه القادمين حديثاً إلى كندا.

وجدتُ نفسي أسيراً في شرايين حياة تختلف بشدَّة عن التي عشناها في مصر، علينا أن نعمل دون كلل، أخذت "رشا" تعادل شهادتها الجامعية، لإيجاد فرصة عمل تشغل بها الوقت.

هنا، كانت ملامح "هند" في الذاكرة تروح بعيداً، وتختفى، لكن الحنين كان يشــدني لها، يجتاحني في أوقات لم أكن أعمل حســاباً لها، ودون ســابق إنــذار، حتى وأنا أســير في حدائق المدينــة، مع زوجتي، تنتزع اللحظة ذاكــرتي، تسرح بي بعيداً ، وتعيد تذكيرى بالحديقة التي كنا نســير فيها معاً بين العصر والمغرب، متشــابكي الأيدي كعشاق صغار، وكأننا في حالة من الوَلَهِ تجاوزت أحــداث الخيانة والانفصــال والعناد وخيبات الأمل.

في بعض الأحيان، وأنا إلى جوار "رشــا" في السيارة، ننطلق عبر الشــوارع متجهين إلى المنزل، أفتح مسجل السيارة، أستمع إلى أم كلثــوم، تعيدني الذاكرة إلى اليوم الذي كانت تغني فيه

"هنـــد" لي: (ولا ليلــه ولا يــوم ، أنا دُقت النــوم أيام بعدك، كان قلبك فــين وحنانك فين، كان فين قلبك؟ أنا أنسى جفاك، وعذابي معاك، ما انساش حبك) ...

وأتذكرني ، حين كنتُ في غواية طفل نَزِق، يرد عليها بالغناء مُطوِّحاً رأسَــه يميناً ويســاراً ، كأنني في تلك اللحظات، لم أكن أفكر في عواقب أن يلمحني أحد طلاب الكلية، أو ممن يعرفون "هنــد"، أو يعرفونني، لم أكُنْ أرى أمامي إلاَّ ضباباً، وأشــباحاً، وأنا أغني وأرد على ما كان صوتها يشــدو به: (كان لك معايا، أجمل حكايه في العمر كله، ســنين بحالها ما فات جمالها على حب قبله, ســنين ومرت زي الثــواني في حبك انت, و إن كنت أقدر أحب تاني، أحبك انت) ...

حيــاةٌ بأكملهــا، ظلَّتْ تطاردني في المدن التــي فررتُ إليها لأنــسى، كنــت أدرك أنها حكاية حــب بلا أفــق، دون نهاية منظــورة، لكني ربما بحماقــة أو اندفاع، كنتُ أســيرُ مدفوعاً بغموض ســاحر، حالة تختلط فيها النشوة بالانتظار، واللهفة والشــوق، ذلك الســحر الذي يشــدنا، والــذى افتقدناه حين تحولنا من عاشــقين مرتهنين للهفة، إلى زوجين يقيمان معاً في بيت واحد ، دون أن ينتبها إلى أنَّ جذوة الاشتياق، تحتاج بين الحين والآخر إلى صبِّ الزيت عليها، كي لا تنطفئ ، ليتنى كنتُ أعرف، وليتكِ يا هندُ كُنتِ تعرفين، أنَّ الحبَّ رهينُ شوق دائم،

ولهيب لذيذ يجتاح القلب، ويحرص على إبقاء حرارته دافقة، آه لو كنا فعلناها، لو لم نترك اللهفة في قلبيْنا لتموت، لو أدركنا أنَّ خفوتها يعنى اختفاء الحب، وانطفاء ذلك الشعور النبيل، آه لـو كان أحدٌ نبَّهنـا إليها، لو أنه قالها لجدِّنـا آدم، ما كان مصيرُنا في أي وقت، مغادرةَ الجنة.

مرَّت سنة، وانقضتْ أخرى، على الرغم من أني كنتُ أعيش حياتين، الأولى تسـتغرقني، لرشـا وعملي الوقت الأكبر فيها ، والأخرى تطاردني، تشـدُّني إلى ذلك الجزء الخفيّ الذي تكمن فيه بؤرة الحنين، ورغم أني حاولتُ، لم أسـتطعْ النسيان تماماً ، ولا الإفلاتَ من طيف "هند"، منذ أن رمتْهُ في قلبي وانسلَّتْ.

كنتُ أرى خيالها يحوم حولي، لكنَّ الذي طمأن النفس هو أن "رشـا" لم تكن تشـعر، انتظمتْ وتيرة حياتنا بمرور الأيام، وتمكّنـا - عـلى الرغم مما أعترف به لك مـن حنينٍ لهند - من إقامـة عش هـادىء ، ابتعدنا به عن خلافـات عائلية تندلع أحيانـاً مـن حولنا، لدى أسر كثـيرة أتتْ من الـشرق، نتيجةً لتصادم في تقاليد وأفـكار، وضعها نمط الثقافة المختلف، مرة واحدة في فوهة الحريق.

أدركت "رشا" تلك الظروف، وأبعدتْ بيتَها عنها، في الوقت الذى راحتْ في اطمئنان راسـخ ، تحيطني ورضيعَها "شادي"

بما تقدر امرأة على بذله من حنان، كنتُ أشـعر بتحول هادئ نحوها، مع مرور الأيام أصبح أشدَّ قرباً وأكثرَ انسجاماً.

- "هل أصبحتَ تشعُر بالحب نحو رشا؟".

- "ربما كان حُبّاً، أو هو امتنان، لكنه لا يشُبُّ كالحريق في القلـب مثلما كان مع "هند"، خلال المرحلة التي سـبقت الزواج، قد يكون السـبب هو ما قلتُه لك، من أنه ظلَّ يفتقد سحر اللهفة، كيف يشتاق المرء لمن يقاسمه تفاصيل المعيشة؟ هكذا أشعر تجاه "رشـا"، زوجة رائعة، حنون، عاقلة، وبارعة في إشعار زوجها بأنه طفل مُدلَّل، يُحِسُّ نحوَها بامتنانٍ دائم، لكنَّها مثل بعض الزوجات، يكتفين من الرجل بابتسامة رضا".

- "فى كل الأحوال، فإنَّ "هندَ" اختفتْ، وكسـبت "رشا" المعركة في النهاية؟".

- "من قال لك هذا ؟لم تكسـب "رشا" تماماً، لكنَّ الأمر حُسِـمَ، لا تندهش هكذا، هذا ما حدث بالفعل، حين دارت رأسي وشـعرت بدوار هائل، أشبه بما تحدثه موجة جانحة في قلب إعصار".

- "هند مرة أخرى؟".

- "فجـأة، رنَّ جرس الهاتـف في مكتبى، للوهلة الأولى

حين نطقت، أدركتُ أنَّ ما كنتُ أستبعد حصوله حدث، صوتها الذي لم أستطع نسيان نبرته، هو الذي رنَّ في أذنيّ، سألتني عن أحـوالي، قالت أنهـا تدعو بالتوفيق لي طيلـة الوقت، ترى أنَّ نجاحي في حياتي، سيكون تعويضاً لها، شعرتُ أنها تعيش حياة قلقة، هكذا تصـورت، لم تترك لي مزيداً من الوقت لتحليل ما تقول، أكدت أنها تعلم أننا لن نستطيع مهما حاولنا، طيَّ تلك الصفحـة التي كانتْ بيننا، قالتْ أنَّ علينا التعايشَ مع الواقع، والسـعْيَ قدر الإمكان للاطمئنان عـلى أحوالنا، دون أن يؤثر ذلك على مسار الحياة مع عوائلنا".

- "إلى هذا الحد؟ لم تُرِدْ "هند" الاستسلام؟".

- "المشـكلة ظلَّت تكمُن عنـدي ، أنا الذي كلما قررتُ النـأي عنها، اقتربت أكثر، وكلما عاد صوتها إليّ أشـعلَ الحنين في جوانحي ، مرت ثلاث سـنوات عـليّ في كندا، تغيرتْ حياتي خلالها، حصلت على الدكتوراة، ووجدتْ "رشا" عملاً استغرق وقتها، وكبر "شادي"، وجاءت من بعده "سحر"، ولا زلت أسيراً لنزق العاشـقين، فهل سـمعتَ عن حالة مشابهة لحالتي؟ ما تكاد الجذوة في القلب تتحول إلى رماد، حتى تعود لتشـتعل بنفخة هواء من "هند" ، في كل وقت كانت ذكرياتنا تطاردني، أسـتعيد تلك اللحظـة التي كانت تُدلِّك فيهـا صدري، كانت تفعل ذلك باحتراف مدهش، كنت أحس بأصابعها تعزف على

أوتار قلبي، يتحول صدري إلى آلة موسـيقية مسطحة، ولذلك لم أكنْ وقتها أشاءُ أن أنقلب إلى الوضع الآخر، لتعزف بأناملها فوق عظام الظهـر ، وقتها كنتُ أحس بعطش جارف، عطش من كل الأنواع، عطش مخلوط بجوع هائل، من ذلك الصنف الذي يتعاطاه الإنسان، فيجوع أكثر.

مسـكينةٌ "رشا"، فعلتْ كلَّ ما تستطيعه، كي تنجوَ بسفينة العائلـة من جموح العواصف، غـيرَ أنَّ الرياح التي تهُبُّ من الخـارج، دائماً مَّا تتمكن من هـزِّ النوافذ، وكانتْ نافذة قلبي مُشرَعـة ، تتأهَّبُ في كل وقـت للحظاتٍ آسرة ، وقتما تتماوج اللهفة، ويتسلَّل الحنين".

- "هل عُدْتَ للتواصل مع "هند"، بعد المكالمة؟".

- "تـرددتُ كثـيراً في الاندفاع نحو هـذا الاتجاه ، على الرغـم من أنَّ هناك جزءاً مَّا من الروح، كان يحرضني على ردِّ التحية، غير أني كلما أطلْتُ النظر إلى وجه "رشا"، واستدعيتُ إلى الذهن، مـا جاء في اتصال "هند"، كنتُ أُصَابُ بتشـوش، أُصبح كالغريق وسـط أمواج مخاتلة، ليس أمامه إلاَّ السعيُ، لتجـاوز خطر اللحظة، والتفكير فيما بعد، في وسـيلة تجنبها، كانـت "هند" قطعةً من الروح، لا أسـتطيع اجتثاثها، غير أني أدرك كم يسدد هذا التردد من طعنات لرشا.

كنتُ أستغرق طيلة الوقت في البحث عن حل لتلك المعضلة، عن وصفــة ناجعة لوَلَهٍ مجنون، يطارد القلب ويراوغه، يلقى شــباكه عليه حتــى لو اختبــأ في أقصى العالم، ولا يســمح له بانفلات ، لجأتُ إلى "رشا"، قالتْ لي من قبل أن أبوح:

- " أدرك منــذ البداية، أنه لا علاج للحب الأول ، لكني لم أعُدْ خائفةً منه عليك، كنتُ ألوذ بالصبر وقت أن أشــعر أنَّ هناك ما يسحب القلب إلى البعيد ، وأراهن على وقتٍ سيكون لنا فيه أطفالٌ يملؤون علينا الحياة، ويقدمون المساعدة لك في حســم ترددك، في النهاية، ها أنا أدرك أنه لا فائدة، وأنه باتَ عليّ التعايش مع قدري".

قالتْ ذلك، فارتجفتُ ، كأنَّ صقيعاً عارماً اجتاحني، ألقيتُ برأسي على صدرها، ورحتُ أشــعر بحبَّــات المطر الهابطة من عينيهــا، تواصل نقرها فوق فروة رأسي، كأنها في تلك اللحظة، راحــتْ تحفر فيها نفقاً ، يوصل إلى تلك المنطقة التي يختبيء فيهــا الحنين، ازدادتْ ارتجافــاتي، وزادت هي ضمَّاتِها لي، مثل أم رؤوم، فيــما راحــتْ أصابعُ كفِّها تتخلَّل مســارات دماغي، لعلَّها كانت تفتِّش بإصرارٍ عن ذلك الطفل الأرعن، الذي كلَّما روَّضَتْهُ ، انفلتَ.

وكأنهــا في تلــك اللحظــة، كشــفتْ كلَّ مــا كان خافيــاً ،

واســتطاعتْ أصابُعهــا الباحثة مثل مغناطيــس ، جذبَ ما فى داخلى من أسرار، باتت صفحةُ العمر مكشوفةً أمامها، تحولت دموعها المتســاقطة في هدوء ، إلى نحيبٍ أنثويّ مؤلم، شعرت في تلــك اللحظة، أنَّ زلزالاً هائلاً ، يطيح بي بعيداً، وفيما كانتْ تجاهــد للإمســاك بي، رحتُ أنــا الآخــر أصرخ ، أُطهِّر الروح بالبكاء، رفعتُ وجهــي إليها، كانت أعيننا مغرورقة بالدموع، مالتْ قليلاً ، قليلاً ، قبل أن تتوقَّف فجأةً لتقول:

- "أنا التي لم أنجحْ في هذا الاختبار ، لا أنت".

فــاضَ المطرُ أكثر، حتى غمرتْني ســيولُه، وجَّهْتُ عينيّ إلى الأعلى، وأغمضتُهما، ظللتُ هكذا طويلاً ، كنتُ في تلك اللحظة قد تيقنتُ من أنَّ "رشــا"، باتتْ تُقِيمُ في داخل الجزء الحميم من القلب.

انتهى

شَغَف خافِت

أنهت قولها، فارتجفت، كأن صقيعا عارما اجتاحني، ألقيت برأسي على صدرها، ورحت أشعر بحبات المطر الهابطة من عينيها، تواصل نقرها فوق رأسي، كأنها في تلك اللحظة، راحت تحفر فيها نفقا، يوصل إلى تلك المنطقة التي يختبيء فيها الحنين، ازدادت ارتجافاتي، وزادت هي ضمّاتها، مثل أم رؤوم، فيما راحت أصابع كفها تتخلل مسارات دماغي، لعلها كانت تفتش بإصرار عن ذلك الطفل الأرعن، الذي كلما روضته، انفلت.

ALRAYAH
الراية للنشر والتوزيع
توزيع
ميديا بروتك
MEDIA PRO . TEC
9 683000 032908

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

رقم الإيداع : 3025 / 2016
I.S.B.N : 978-977-426-190-9

15 شارع سوريا - المهندسين - ج . م . ع
هاتف : 33446727 02 002 فاكس : 33026637 02 002
E-mail:Rayatop@hotmail.com
WWW.DARALRAYA.COM